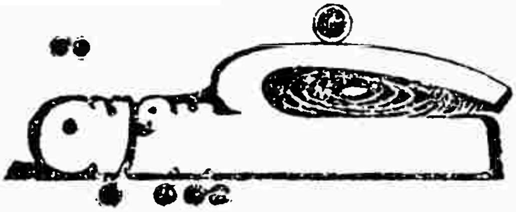

١ - شياطين وأرواح

٢ - رائع ذاك الماضى .. ولكن

٣ - نحن لا نؤذن فى مالطه

٤ - وحتى لا نطفئ الشمس

٥ - حكاية الدرويش وصبى الحلاق

٦ - أحمد ونفسه فى سفينة فضاء

٧ - الناس والفئران

٨ - الكتخدا وسقاء حريم ولوسيان

غيبوبة

رائع هذا الطب فى علاقاته مع جسم الإنسان . وتظهر الروعة فيما أنجهزه هذا العلم عبر قرون طويلة حتى صار إلى ما هو عليه . . . . ومحاولاً أن يصير إلى أحسن مما هو عليه . والناس تمرض وتتكسر وتتحسر ، والأطباء يداون أو يحاولون ، على قدر العلم ، المداواة .

والأمر الهام هنا هو محاولة العلاج ، وربما تكون العمليات الجراحية هى طريق سلطانى للشفاء من بعض العلل ، وهذا ما نرجوه لأحمد بعد أن تصدعت أجزاء من هيكله العظمى ، ونرجو ألا يكون فى هيكله النفسى بعض التصدع .

وقد ضاع إحساس أحمد الجسمى فى ثنايا غيبوبة أوجدتها بالقوة هذه الجرعات المخدرة . . . ولا يحس الجسم ألم التقطيع فيه حتى لا يكون الأطباء جزارين ، بل على الأفراد رحماء وهم يصححون بعض ما أفسده غباء من البشر .

تحس شوق فى أعماقها وفى منطقها العلمى كل هذا . أما انا – الكاتب – فقد تغلغلت إلى شىء من العمق .

وأعيش مع غيبوبة أحمد شيئاً من التاريخ وشيئاً من مشاكل الحاضر التربوية .

وأحمد يحب القصة ويحب حكاية القصص .

• • •

أرواح وشياطين . . . . .

أمانى الفرد الكبار فيها أمان له ، وأمانى الغير الكبار إذا تعارضت مع أمانيه فيها مخاوف تستفز وتستنفر أعماق تاريخه البشرى .

وعندما دخل أحمد المدرسة الثانوية بدأ تفكير الوالدين يتبلور أكثر وأكثر ، وتحولت الدعابات إلى إصرار ، إذ عليه أن يدخل القسم العلمى ليدخل كلية الطب ويتخرج فيها طبيباً ، وسرعان ما سيكون مرموقاً ، وسرعان ما يصبح النطاسى البارع الذى يهرع إليه الخلق من مشارق الأرض ومغاربها .

وكان أحمد يهوى الأدب ، وله أسلوب أدبى شائق ، بل له محاولات قصصية قيل عنها إنها طيبة . ولكن لا .. وألف مرة لا . . . فالطب هو طريقك يا إبنى أحمد . . . لا تغضب والدتك شوق التى حملتك تسعة أشهر ورعتك بكل حنانها وصحتها ..... لا تحطم أمالها وامنياتها .....

لم تغضب السياسة التعليمية أحمد ، فرحباً به حسب رغبته وميوله واهتماماته ، ولكن الوالدين وربما الأسرة ، ولهم الكلمة العليا ، وهو صاحب الشأن لا رأى له . ودخل كلية الطب وأمضى السنة الاعدادية فى كلية العلوم وممراتها طويلة متفرعة ومعاملها كثيرة عديدة ، وعدد الطلبة والطالبات كبير ، وأحس أنه تائة بين جمع من البشر وأجهزة فى معامل ، وبدأ يفقد شيئاً من نفسه تدريجياً .

.... وكنت أرى نفسى شجيرة هزيلة فى مهب رياح عاصفة ، أذاكر فى الكتب وربما أحفظ ما فيها ، ولكنها عندى معلومات جامدة صماء لا روح فيها ... بالنسبة لى . وتدريجياً بدأت الابتسامة تنسحب

بعيدة عن وجهى ، وإن أتت للحظات فهى باهتة اللون منافقة المعنى . لكننى بذلت كل ما استطيع من جهـد حتى يستطيع عقلى أن يهضم ما لا يستسيغ . . . . وكان بى شعاع من أمل أن أثنى رغبتى الحقيقية وأخضعها لرغبة والدى والأسرة . . . . . وأغرقت نفسى فى التحصيل ، وبعدت يدى عن كتب الأدب ؛ ونأيت بتفكيرى عن القصص والشعر . ويلوح أننى بالغت بعض الشيء ، وكنت أريد رضى والدى ، وكان سلوكى يعجبهما ويزيد من دعواتهما لى .

وفجأة أسدل الستار على هذه المهزلة وتفجر البركان القابع فى صدرى فى سلوك الصمت الفاعل . وكانت نتيجة نهاية العام مؤلمة لهم جميعاً . . . للوالدين والأسرة . . . أما أنا ؟ ! ومع بداية العام الجامعى الجديد عاد الالحاح ، ربمـا ظنوا أن شياطين من الجن قد ركبتنى . . . . شياطين استطاعت أن تغمى عينى عن الحقيقة الواضحة . . . فإن عشرات الآلاف قدموا أوراقهم إلى مكتب التنسيق معى ، وقلة قبلوا فى كليات الطب . . . وكان على أن استحيي ، وأن أضع فى عينى بعض خصيات الملح . ويظهر أننى أعجبت الشياطين ، ويظهر أننى أحببتهم ، وبدأت أكتب فيهم قصائد مديح ولا أقول غزلاً . . . . وأحسست أننى أبتعد عن أهلى واقترب من شرنقة اتقوقع فيها . . . . لكن كان على أن أذهب إلى الجامعة حاملاً كتبى ومذكراتى وإلا تمرض والدتى وتفاجئها أزمات كثيرة ، ويظهر أن والدى اكتفيا بأن يمرض واحد منهما فقط .

وددت لو عدت إلى العصر الذهبى للاسلام فيما بين القرن التاسـع والثانى عشر الميلاديين ، وكان هناك فلاسفة وجهابذة وعباقرة . وربما ألم الواحد منهم بأكثر من فرع من فروع المعرفة وفى اجادة بارعة تشهد له بالأستاذية ، وقد درسوا ما أحبوه وأحبوا ما درسوه ، ولذلك كان انجازهم

ضخماً جباراً التهمته فى نشوة جامعات أوروبا فى العصور الوسطى وبعض الحديثة .

وكانت هذه الأعمال الابتكارية أقوى من أى ضغوط ، بل ربما كانت الضغوط مثيرة إلى أرقى الابتكارات والانجازات العلمية أو الأدبية

. . . . . .

لست أدرى لماذا لا ترعانا الدولة بكل مؤسساتها إذا لاح تميز واضح فى أنا أحمد عندما كنت طفلاً . . . كان يجب أن تأخذ بيدى فى حنان وترعانى ، وربما صرت اسماً عالمياً تفخر بى . لماذا يترك المجتمع موهبتى للذبل أو تضيع وسط مقررات أغلبها لا يهمنى ولا يعنينى ولكنها تأكل حماسى وتطفئ الجذوة فى نفسى ؟ ربما لو بان على شيء من النبوغ الأدبى وأنا صغير ، وصارت صفقة باتة بينى وبين المسئولين ، فلا رجوع فيها ، ربما اقتنع والداى منذ زمن أننى سأكون رجلاً مرموقاً ، وشجعونى ودفعوا بى إلى الأمام . . . . لكن هذا الصراع المضطرم فى صدرى بين ما أريد وبين ما يريدان . . . . هذا أمر صعب

. . . . . .

. . . . . .

انى أخشى العملية الجراحية . أخاف رقاداً على سرير المستشفى فى وضع معين يمتد عدة أسابيع ، حركتى بحساب . أخشى تعباً ومضايقات جسمية ونفسية لا بد من تحملها . . . أخاف نظرات العطف من الزائرين ، أرتعد عندما أفكر فى خوف شوق على ، وأراها وهى تتوسل إلى الله فى خشوع ورجاء .

لكننى أحس داخلى أمناً وطمأنينة ، بل أكاد أرتفع راحة بإحساس غامر يغلفنى أن الله معى . . . أحس أنه أرسل من يقف ورائى . . .

لا أرى ملامح وجهه بدقة ، ولكننى أراها فى ضبابية . . . ولكن فيها وضوحاً ، وقد تلوح على وجهه ابتسامة لا تذهب ، وهى واضحة فى معناها ، أراها فى ضبابية ولكنها مشرقة جلية . . . .

وقد تطوف بى أفكار عن عدم قدرتى على التحمل سرعان ما تجرفها سيول إيمانى وثقتى بالله العلى القدير . . . لقد خفت وأنا طفل الظلام ومن (أبو رجل مسلوخة) ، خفت العقاب البدنى والتأنيب وذم الناس . . وخفت المرض وخفت الفشل وعدم النجاح .

. . . . . .

يقول صاحب « التربية والتقدم » وقد شده التاريخ إلى عصور كثيرة مضت حيث دار معظم تفكير الإنسان حول إرضاء حاجاته المباشرة ، كيف يشبع جوعه ؟ كيف يحمى نفسه من الأعداء ؟ كيف يتجنب الإصابة والموت ؟ لقد عاش حاضره واهتم به كل الاهتمام ، مع استعداد هين للمستقبل القريب ، المتمثل فى حيوان ضار قد يهجم عليه ، أو خوف من غضب الجبل أو ثورة الريح العاتى . وكانت فلسفته أن يضمن اليوم ابتعاد الشر عنه . وإذا جاز لنا تطبيق هذه الفلسفة على ما يسمى بنظامه التربوى ، فقد نقول إنه كان نظاما مبنياً على التقليد . والتقليد تم رغم وعى الأفراد ، فلكى يعيش فرد وسط تلك الجماعة عليه أن يعمل ما يعملون . ولكى يعمل عليه أن يتعلم ما يعملون ، ولكى يتعلم عليه أن يلاحظ سلوكهم ، ثم يبدأ مشاركتهم فى محاكاة شديدة التماثل وهكذا كانت تربية ذلك الإنسان ، تعلم ليعيش مع المجموعة ، تعلم ليكون متوافقاً مع أفرادها ، تعلم بالعمل ولكى يعمل .

كانت حاجة الإنسان إلى الأمن هى الهدف الأساسى لتربيته ، إذ تبلورت مشاكل الإنسان الأول حول تدبير أمور معيشته وحمايته من قوى الطبيعة

المخربة ، ومن أعدائه سواء كانوا حيوانات أو بشراً . وكان الخوف هو الدافع الرئيسى لمعظم سلوكه ...... « فى البداية كان الخوف ..... الخوف فى قلب كل إنسان ، وتحكم الخوف فى الإنسان . تحكم فى حركاته . ولم يترك له لحظة هدوء ..... خاف الإنسان الأول النار والعواصف والرعد والموت .... ثم تعلم كيف يحمى نفسه ، ونقل إلى أبنائه وأحفاده تلك الطرائق التى أثبتت فعاليتها فى مجابهة الأخطار . وكان الإنسان الأول عبداً لحاجاته العضوية ، وعبداً لمخاوفه من القوى الخفية . لذلك فإن أهدافه من التربية كانت الحصول على ضرورات الحياة للفرد ولأسرته ومسالمة وتهدئة القوى الخفية التى يخشاها ويخاف منها .

فقد خاف الإنسان الأول الجماد أكثر من خوفه من الكائنات الحية ، بل إنه أعطى صفة الحياة لكل شىء ، الأشجار والصخور والعواصف ... الخ . كل شىء يغضب ، ويرضى ، ويثور ويهدأ ، قادر على تدميره وقادر على أن يتركه لحال سبيله . وكان على الإنسان أن يكيف حياته وفق معتقداته هذه . لكل شىء روح وجسم . ويجب أن يرضى الإنسان روح الشىء حتى لا يصيبه الجسم بأضرار تهدد حياته أو تنهيها تماماً . ومن المحتمل أن هذا الاعتقاد فى ثنائية الجسم والروح جاء إلى الإنسان الأول من خلال خبراته بالأحلام . وأعتقد فى بداية الأمر فى وجود نوعين من الأرواح ، نوع حيادى لا ينفع ولا يضر ، ونوع واقف له بالمرصاد على أتم الاستعداد لالحاق الضرر به . وعلى الإنسان أن يبعد ذلك النوع الثانى أو يخدعه حتى ينجو من شره .

وقد تمخض عقل الإنسان فيما بعد عن امكانية وجود نوع ثالث من الأرواح ، أرواح صديقة ، أو إمكانية تهدئة الأرواح الشريرة واقناعها بأن تصادقه . لهذا تفتق تفكيره عن تملق هــذه الأرواح بعقد الطقوس وممارسة السحر ، وتقديم الهدايا لها حتى ترضى عنه ، أو يقترب منها ،

أو يقربها منه . الأرواح غامضة وكذلك السحر وطقوسه وما يدور فيه وحوله . بهذا قصرت الشقة بين الإنسان وهذه الأرواح الغامضة . وظن الانسان الأول أنه قادر على خداع الأرواح ، أو أن الأرواح تحب هذه الطقوس وتحضرها فى ارتياح غامر . وعندما تحضر الأرواح أرض الطقوس وتندمج مع الإنسان فى ممارستها ، فهنا يتم التقارب وتنمو صداقة تنجى الإنسان من شر هذه القوى غير المرئية . وبهذا استطاع الإنسان الأول — على حد ظنونه — أن يأمن شر الأرواح خاصة عندما غالى ، وتعمد المغالاة بوضع قوانين صارمة تحرم عمل أشياء ، وخلق بذلك المحرمات التى تبرهن دائما للأرواح الشريرة على حسن نية الإنسان . وأصر الكبار على أن يراعى الصغار هذه المحرمات وإلا أثاروا غضب الأرواح الشريرة .

وهدفت التربية أيام عصور ما قبل التاريخ على يد الإنسان الأول أيضاً إلى حتمية التوافق ؛ توافق الفرد مع الجماعة . وهذا التوافق ضرورى لضمان أمن الفرد وأمن الجماعة . وهل أشد من الخوف شىء يجمع بين الأفراد ؟ دعا الخوف إلى التقارب فى شكل أسر ، وجماعات وقبائل . وأدى التقارب والتعايش سوياً إلى حتمية التوافق . لذلك كانت عملية قبول الفرد ضمن المجموعة تمثل تقريباً كل تربيته . والمهم هنا ضرورة الشعور الجماعى ، وليس شعور فرد واحد ، فإن طبيعة المجتمع حتمت جماعية الفرد لا فرديته ، صالح المجتمع لا مصلحة فرد . حقوق الفرد تنصهر فى بوتقة عظمى تجمع المجتمع ككل .... المجموعة لا الفرد .....

وقد يعن لبعض المفكرين التأمل فى هذا الموقف قليلا ، وقد يلوح لنا أن جماعية العمل نبتت بصورة طبيعية وحتمية بين ظروف الحياة التى عاشها أفراد قبيلة ما على سبيل المثال . ولا نستطيع أن نتصور فردا أو قلة من الأفراد ينعمون فى الظل وكثرة تعمل فى وهج الشمس ، أو قلة قليلة تملك الكثير وغالبية عظمى لا تكاد تملك شيئا ، أو أفراداً لهم امتيازات خاصة

ترفعهم فوق مستوى بقية (الجماهير) . . . إنه كان مجتمعا - فيما يلوح - ارتفعت فيه ألوية الديمقراطية الحقيقية ، المساواة الفعلية ، والعدالة فى بساطتها المؤثرة وسطوتها الفعالة . كان لا بد للفرد أن يخضع لقانون الجماعة حتى يصير منها ، وإلا عزلته الجماعة . والجماعة هنا تعنى جميع الأفراد . وحتى يعيشوا ويضمنوا غذاءهم وكساءهم ومأواهم ، ويضمنوا أمنهم وحمايتهم ؛ ارتضوا شريعة ظلالتهم وخضعوا لها ، ومن شذ ينبذ .

الحياة ذاتها خلقت النظرية ، لم يضعوا نظرية ثم عمدوا إلى تنفيذها ، وإنما ظروف المعيشه سيرتهم طبيعياً إلى سبيل الجماعية فى العمل والتميادة ليحققوا الأمن . هذا الأمن الذى تسعى البشرية منذ عصورها الأولى إلى اليوم إلى تحقيقه ؛ وكانت آخر محاولة لها (اختراع) مجلس الأمن . وفى أعماق جوهره قد لا يختلف كثيراً عن تحقيق ما أرادته جماعات الإنسان الأول .

هدفت تربية الإنسان الأول إذن إلى محاولة تحقيق توافقه مع الجماعة . وكانت هذه التربية - بطريقة طبيعية يحياها الفرد منـــذ بواكير طفولته وينمو فيها . كان عليه أن يتعلم بالمحاكاة والممارسة ما يعمله الكبار لتدبير معيشتهم ، وعبادتهم واسترضائهم للأرواح . . . أو الآلهة .

. . . . .

ويتململ أحمد قليلاً وهو يرى اليوم ربما أشبه بالبارحة ، وما نريده ، أن يكون هناك هذا القدر المشترك من التفاهم بين أفراد المجتمع الواحد ، بل بين أفراد الأمة الواحدة ، والقومية ، بل أمل يداعب خيال المتفائلين من رجالات التربية فى تفاهم دولى . وهذا حلم وردى قريب من حلم أفلاطون فى مدينته الفاضلة حيث يسود الحق والخير والجمال .

رائع ذاك الماضي.....ولكن....

وحيث يستشعر الفرد صفاء وجلاء يرى ما حوله غير ما كان يراه ، والحزين دنياه سوداء ، والسعيد دنياه وردية ، ولا علاقة لهـذا بجهل أو علم ، بغنى أو فقر ، ولست أدرى لماذا تأخذنى عجلة الزمان فى دورانها كثيراً إلى الوراء وقليلاً تهتك استار المستقبل .

وحيث جسمى ليس منى الآن يفعلوا به ما يشاءون دون آلام أحسها أو أوجاع تؤلمنى ، ولـكن كل هذا مؤجل لوقت آت وعقلى يعمل ويطرق آفاقاً بعيدة وموضوعات الروابط بينها – ربما – غير واضحة للمتعجل . . . ماله يرى الطبيعة البشرية ليست هى ما ولد به الإنسان ولـكن ما يصيره بتأثير العوامل المنظمة فى بيئته الاجتماعية ، فيتأثر الفرد بالعوامل والمؤثرات التى يتعرض لها فى هذه البيئة ، إلى جانب الغذاء ، هناك الحب ، أن يحب غيره وأن يكون هو نفسه محل حب من الآخرين . وقد ساد اعتقاد لمدة طويلة أن الإنسان يولد أنانياً وعدوانياً ، وأن عليه أن ينال من التربية ما يضع حداً لأنانيته وعدوانه . . . . وقد أثرت هذه الفكرة على اتجاهات الكبار نحو الصغار . . . كما أثرت على مجريات الأمور فى المجتمع .

وقد ظلم المجتمع الـكثيرين جداً جداً من الأطفال ، فغضبوا . وأغدق المجتمع على قلة فأغضبوا أيضاً الـكثرة الغالبية . وكان فى مصر الفرعونية الملايين مثل أحمد وكانوا غضبى ، وكانت هنالك قلة لم تغضب . نفس الحال عبر التاريخ وفى مختلف المجتمعات إلا أقل من القليل .

. . . . . كان على رأس المجتمع المصرى القديم الفرعون المؤله وعائلته وكبار رجال البلاط . وتأليه الفرعون أعطاه الحق فى حكم الناس الذين

وجبت عليهم طاعته وتقديسه . والفرعون هو مصدر الحكمة والمعرفة . . . وبعض الرؤساء يرون أنفسهم اليوم فراعنة .

وتلى هذه طبقة الكهنة وبعض النبلاء ، وهم يكونون الأرستوقراطية الاجتماعية والفكرية فى ذلك الوقت ، ومن كبار رجال هذه الطبقة القواد العسكريون . . . . . وكون العسكريون طبقة تلت مباشرة الكهنة . ثم تأتى طبقة من كبار التجار وأصحاب المهن الأثرياء وهؤلاء كونوا الطبقة المتوسطة . ثم تأتى طبقة قوامها الحرفيون والرعاة والفلاحون والعبيد ، وتكون هذه الطبقة الأخيرة ٩٩٪ من السكان . وأنا . . . اقصد أجدادى القدماء ، كانوا من هذا الحشد الذى لا يحصى . . . . وهم قوام المجتمع .

ولم تتح لى فرصة التعلم الذى يرضينى ربما لسيطرة كهنوتية عارمة وغامضة فى طقوسها واستبدادية فى أحكامها . . . ربما لفقر مادى . . . لا أذكر إلا أننى عملت فى الاصطبل الملكى للتربية حيث كان مدرسة عسكرية التحق بها أبناء النبلاء ليتعلموا الكتابة والعلوم العسكرية . . . . وقد تعاملت مع ألوان من الغباء ذات أصل نبيل . ولكننى كنت معجباً ومؤمناً بالبعث . . . . . .

• • •

أما زميل لى جاء من شرق آسيا فحدثنى عن بوذا وكيف كان يستخدم فى نشر تعاليمه طريقة المحاورة والمحاضرة وضرب المثل . ولم يدع بوذا أبداً أنه أوحى إليه ، بل عزا لنفسه الاستنارة . ولم يذكر أنه كان يتكلم بلسان إله . وقال إن كل ما يعرفه الإنسان هو احساساته ، وإلى الحد الذى نستطيع أن نبلغه بعلمنا لا نرى سوى أن المادة كلها ضرب من القوة ، صيرورة وفناء . وأن الروح أسطورة من الأساطير ، وأن العقل الذى

يربط أفكارنا إن هو إلا شبح توهمناه ، وما هو موجود حقاً هو إحساساتنا وإدراكاتنا التى تتكون بصورة آلية فى هيئة تذكرات وأفكار . وتتكون النفس أو الذات من الوراثة والخبرات التى تتم خلال تجارب الحياة . . . . .

ويرتدى كهنة البوذيين رداء أصفر ، وقبل دخولى حجرة العمليات رأيت رجلا يرتدى معطفا أصفر اللون ، له صفرة غريبة ووجهه شاحب وعظمتا وجنتيه بارزتان .

ولم يسمح إلا للقلة القليلة بالتعلم فى الهند القديمة ، ولم يدخل جامعاتها إلا النذر اليسير جداً ومن طبقات عليا كالبراهمان . والكهنة من هذه الطبقة ، والكهنوتية تورث . . . وهناك أدنى الطبقات وهى طبقة المنبوذين (الباريا) . . . وما عاد الغضب يجديهم شيئاً فقد شبعوا غضباً وذلاً . . .

ولم يكن ماركو بولو يدرى الكثير عن الصين القديمة ، ويفخر زميل صينى بتعاليم المعلم كونتج وقد حفظها الصغار حفظاً تاماً فى قديم القديم من الزمن ، وقد أراد لهم الحكام تعليماً يؤدى إلى خدمة النظام القائم وإعداد الموظفين للدولة . . . . وأضحك وأنا أقول . . . فقط فى الصين القديمة ؟ وربما لم يفهم هذا الأخ الصينى ما أقصده لأنه استدرج مكملاً فى فخر وتيه . . . كل شىء كان يتوقف على الامتحانات ، كانت هناك امتحانات تؤهل لوظيفة من الوظائف الصغرى فى المقاطعات أو يصبح الناجح عضواً فى طبقة الأدباء ، وهؤلاء من يحصلون على درجة شيو دزاى . بل يصبح من حق الناجح أن يتقدم لامتحان آخر أرقى وأصعب ، يعقد مرة كل ثلاث سنوات ، ومن ينجح فيه يعين فى وظائف الحكومة الصغرى ، وهى أرقى من وظائف المقاطعات . ومن حق الطالب أن يتقدم للامتحان مرة أخرى وثالثة ورابعة . . . . إذا رسب طبعاً . وقد يموت فى سن الثمانين وهو راسب ، وهذا من حقه ، أى يموت راسباً ! !

أما الناجحون فيحق لهم التقدم لامتحان نهائى فى كلية (هان لين يوان) أى غابة الأقلام ، وهى أكاديمية إمبراطورية . وكان الامتحان يعقد فى بكين ذاتها فى أغرب قاعة امتحان ، تتكون من عشرة آلاف حجرة ، لكل طالب حجرة يأخذ إليهـا غذاءه وشرابه حيث يستمر الامتحان ثلاثة عشر يوماً . ويعطى الطالب بعد دخوله الحجرة الأسئلة .... وهى غريبة . فمثلاً يطلب منه أن يكتب قصيدة عن صوت المجاديف والتلال الخضراء والماء .... وربما شيئاً عن نقيق الضفادع ، ويسأل عن كنفوشيوس والأدب والأخلاق والفلسفة فى هذه الحجرة الرطبة رديئة التهوية . وكان الناجحون يعينون فى وظائف الدولة الكبرى . ولم يزد عدد الناجحين عن واحد فى المائة .

ربما لم يكن القوم فى تلك الأوقات يهتمون كثيراً بالعلم والتعليم ، ونحن لا نحكم عليهم بعقولنا ومفاهيمنا الحديثة ، إذ لكل زمان قيمة . ومن المحتمل أن كان هناك أمثال أحمد .... وربما غضبوا — ولم يضع غضبهم ، إن كان قد حدث . على أن المؤكد أن فلاسفة من الإغريق تشدقوا بالديموقراطية ولكنها كانت عرجاء ، فقد كانت من حق السادة الأحرار ، وكانوا قلة عددية .... سادوا وتعلموا وتركوا البقية تئن غضباً فقد أهدرت بشريتهم وكانوا عبيداً لأسيادهم .

. . . . . .

وعجلة الزمان تدور ، والدنيا تتغير ولكن البعض ما يزال يعيش الحاضر فى أمجاد الماضى . حق لنا وواجب علينا أن نذكر الماضى بانجازاته الضخمة ليعرف كل أحمد ما كان عليه اجداده وكيف أن حضارتهم تذهل عالم اليوم . وكيف أن كنوز توت عنخ آمون أوجدت جنوناً فى القارة الأمريكية اسموه توتامانيا ، وكيف ينبهر عالم اليوم بانجازات آلاف السنين

مضت .... ولكنه كان مجتمعاً قائداً فى وقته وكانت الدنيا صغيرة محدودة — على حد ما نعلم — وكون المصريون أول امبراطورية فى التاريخ. ثم نتساءل عن التاريخ وأنه كان تاريخا للملوك والحكام والقادة ولم يكن تاريخ الشعوب ، تاريخ الفرد العادى ... رجل الشارع الذى كون ، وما زال يكون ، الغالبية الساحقة من السكان .... وقد تجاهلهم الشرق الساحر . وعندما حتمت (أمريكا) المدرسة العامة يدخلها كل الأطفال فى منتصف القرن التاسع عشر ، كان هذا حدثاً تاريخياً .... حق لكل الأطفال أن يتعلموا ، وتنوعت أشكال المدارس (الابتدائية) ، وكانت هناك مدرسة الصف الواحد يجمع مختلف المستويات التعليمية . جرأة حتمها الموقف . أكرر أن الموقف حتم صيغة معينة للتعليم

هذه حقيقة يجب أن تؤخذ بكل اعتبار ، وبكل شجاعة فى محاولة جادة لإعادة النظر فى القوالب التعليمة .

يجب أن نذكر أمجادنا القديمة ، ونرفع بكل الإجلال والاحترام مفكرينا الجهابذة عبر العصور ، ويعرفهم كل أحد فهم أجداده وعليه أن يبجلهم ويرى فيهم قدوة . لكن أن يقف الأمر عند حد الإنبهار بالماضى وفقط ، وترديده وفقط ، فهذا وقوف ومحلك سر ، بل إن استطعت فإلى الماضى ، وقف . ربما كان استكشاف حجر رشيد إبان الحملة الفرنسية على مصر دافعاً للاهتمام الشديد ، والشديد جداً ، بحضارة مصر الفرعونية . هذا خير ، ويجب أن يعزز ، ولكن أمجاد الماضى لن تضعنا حيث يجب أن نوضع فى عالم يتقدم بسرعة صاروخية .

فرسان مغاوير يمتطون جياداً عربية أصيلة وفى أيديهم السيوف اللمع التى تعكس أشعة الشمس فى وهج يعمى الأبصار حققوا لنا انتصارات تنحنى الهامات أمامها ، فهى عزيزة مشرفة . هذا حق وصحيح ويجب

أن نعتز به وندرسه ونكرره فى كل فخر . كانت حروباً اعتمدت على تكتيكات عسكرية وشجاعات فردية ومهارات فى القتال فى مواجهة أفراد بأفراد . واليوم طائرة واحدة تستطيع أن تقتل الآلاف وتدمر قرية ، وربما عضلات قائدها الجسمية هزيلة . . . ! ! ربما يستطيع بالكاد أن يحمل سيفاً واحداً قليل الوزن .

كل شيء تغير :

وعلينا نحن أن نتغير . . . . فى نظرتنا للماضى والحاضر والمستقبل .

وبينما نحن نغرق فى بحر التمجيد للماضى ، كانت مجتمعات غربية تصعد جبال التقدم فى مختلف مناشط البشر . بل إنهم شجعونا أن نعيش الماضى بكل ما فيه . هم أخذوا من ماضينا أحسن وأعظم ما فيه وبنوا عليه واقتصدوا من عمر الزمن دهوراً . . . وصار لهم تقدم .

وتركونا نعيش الماضى . . . ثم عندما بدأ تقدمهم يبهرنا وأحسسنا أننا بعيدون عنهم . . . تلمسنا مشجب القيم الروحية مضادة للقيم المادية ، واستراحت نفوسنا وهدأت ، إذ هم قوم ماديون ونحن نقدس القيم الإيمانية الروحية . . . . وارتوينا هذا إلى الدرجة التى صدقناها . . . أى والله صدقناها . قيمنا الروحية تدعونا إلى أقصى درجات العمل والجد فى تعاون صادق لخدمة الجميع . تدعونا إلى المحبة والتكاتف وقوفا صفاً واحداً فى تآزر وتآخى . . . مواسية وأخوة متحابين أمام الله . . . فى الصلاة . . . وفى العمل .

نحن لا نؤذن في مالطة ....

بل ، لا ننفخ فى قربة مقطوعة ! !

لا ينجح المجتمع التكنولوجى إلا إذا كان مجتمعاً متعلماً . والأدلة حولنا تؤكد هذا غرباً وشرقاً . والتأكيد هنا أنه على الرغم من الاهتمام بالعلوم الطبيعية إلا أن الاهتمام ما زال قائماً بالعلوم الإنسانية .... ولكن هناك شيئاً واضحاً من التوازن . وقد عرفنا فى منطقتنا العربية اهتماماً أكثر بالانسانيات — وبالشعر والأدب بالذات — وغفلنا كثيراً عن التطور الحادث فى أجزاء من العالم فى ميادين العلوم الطبيعية . ولم تنس هذه الأجزاء من العالم الأدب أو الفن ، بل صار تقـدم فى مختلف المناشط والإنجازات البشرية

السمة العاقلة هى التوازن والإتزان ، وكما يتطلب الجسم طعاماً ومسكناً وملبساً فهو أيضاً يحتاج إلى الترويح الذهنى والوجدانى . وهذه ليست رفاهية قاصرة على ذوى الدخول المرتفعة ، أو المستويات الاقتصادية العالية ، ولكنها موجودة عند البشر فقطعة الأديم وبصلة يحتاجها فقير إلى ربه ، وفقير فى ماله ، هو أيضاً يحتاج إلى الاستماع لأغانى صادرة من جهاز (كاسيت) دفع ثمناً له من عزيز عرقه وتعبه ليستمتع بالفن كما يراه هو . هو فى رغبته فى الاستمتاع كالمثقف الذى يهرع ليستمع إلى موسيقى باخ أو بيتهوفن ، وكلاهما يهتز فى نشوة وتقدير .

فتحت التكنولوجيا العصرية آفاقاً للملايين من أفراد الشعب ، وصار التغير الحادث مؤثراً فعلاً على مسار تفكير عامة الشعب . بل تغيرت النظرة إلى القيادة ... ربما فى رغبة إلى العودة لتقاليد إسلامية قديمة ، فالقائد ليس بخيرهم ... وهو يطلب أن يساعده الناس إذا أحسن وأن يقوموه

إذا حاد عن الصواب أو أخطأ . . . . خاصة فى مجتمعات تتحول تدريجيا من الزراعة إلى الصناعة . لكن لا بد من وجود صفوة من العالمين الذين يعرفون أكثر ليقودوا الذين لا يعرفون أو يعرفون قليلاً .

قد يحدث أن تركب قطاراً ينهب بك الأرض من العاصمة إلى مدينة أخرى ماراً بحقول خضراء . وإذا نسيت أنك فى قطار واستطعت رفع أعمدة التليفون والتلغراف لكان ما تراه هو نفس ما كان يراه أحد أو كل أجدادك الذين عاشوا على هذه الأرض عدة آلاف من السنين . . . حتى فى مأكلهم وعاداتهم ، إلا بعض التغير الطفيف .

هو عمل جبار أن يحاول المسئولون عن تربية الشعب أخذه من دنيا التاريخ الذى مضى إلى فرص ومخاطر العصر الحديث وتكنولوجيته .

وكان الله فى عون القادة الذين يرومون الاصلاح الحقيقى والذين عاشوا ويعيشون فى القرن العشرين ، وقد بدأ يشيخ عندما يكون جنين القرن القادم ، لهذا فتشهد هذه السنوات فيضاً كاسحاً من البروباجندا — الدعاية . . . . ربما كان من حق التربية أن تلعب دوراً رئيساً هنا ، ولكن أين هى ؟ .

إن ثورة التوقعات الصاعدة التى تجتاح الكثير من أرض هذا الكوكب تدفع البلايين من البشر إلى تطلع مؤداه أن اليوم يجب أن يكون خيراً من أمس ، وهو أقل من الغد . بعض الناس يكتفون بأن يكون اليوم غير مختلف عن الأمس ، وبالتالى فإن الغد هو حال اليوم . هنا يكون التوقف أو التقدم إلى الحالة الراهنة ، وهذا فى ضمير العالم تخلف .

ما ثمن التربية ؟

إذا حدث أن دخل ميدان الزراعة ميكنة حديثة . أو اقيمت مصانع

كمبيوترية الطابع ، فالأمر يتطلب تعبئة تربوية عاجلة وعميقة . الثمن غال قطعاً ، لكن المردود مبشر وآمل . لا بد من عقول بشرية تواكب التحديث فى الأعمال الزراعية والصناعية ، وإلا كانت النتائج وخيمة والعواقب مؤلمة .

لا بد من انطلاقة تربوية وثابة . ولنتصور طائرة بركابها وملاحيها وقد شرعت فى القيام إلى رحلتها ، وعلى الممر تتوقف برهة ثم نسمع هدير المحركات ، ثم بأقصى سرعة تلتهم طول الممر ، وقبل أن تصل إلى نهايته تكون قد علت فوقه ثم يحتضن جسمها عجلاتها . . . ثم يسمح بالتدخين وفك الأحزمة .

وينقسم العالم إلى ثلاث فرق : فريق يملك وفريق لا يملك وفريق بين بين . ولك أن تقسم العالم إلى ما شئت من أقسام أو فرق . ولكن المؤكد أن هناك دولاً غنية وأن هنالك دولاً فقيرة ، والتعليم يختلف هنا عن هناك . وقد تساعد الدول الغنية الدول الفقيرة ، ولكن فى شح وبخل ، بل ربما استنزفت الغنية عقول الفقيرة ، وهى تأخذ (باليمين) ما أعطته بالشمال ، ويظل الفارق الحضارى يتسع .

ولم يحدث اتفاق بين العلماء — بعد — على مقولة أن اصلاح التعليم شرط مسبق لتحقيق النمو الاقتصادى . إذ يؤكد بعض علماء الاقتصاد أن استثمار الموارد البشرية عملية بطيئة ، ومن ثم فلا يجب أن تعطى لها الأولوية . إن تطبيق نظام التعليم الأساسى فى مصر ومد فترة الإلزام من ست إلى تسع سنوات وتغيير المناهج . . الخ كل هذا لن يعطى نتائج يمكن أن يحس بها إلا بعد نهاية هذا القرن — إن شاء الله تعالى . ويرى هؤلاء العلماء فى الاقتصاد أن خيراً فى اقتحام مسالك قصيرة ومباشرة لتحقيق ارتفاع فى الدخل القومى . . . وتدريجياً يبدأ فى رفع الكفاية التعليمية . . . . ويتقدم ويتحسن ويتجود التعليم .

لا يدرى أحمد ماذا كان يحدث حوله فهو فى غيبوبة ، وربما تقاطر أطباء ومختصون حوله ، إذ يلوح أن ثمة خطراً يهدده . وبقدر ما كانت تسمح له الحركة كان يتململ فى ألم . وقد أحس بالأيدى تتحسس أجزاء من جسمه وأصواتاً مختلطة تطرق سمعه ولكنها آتية من بعيد وهو لا يستطيع أن يميز منها شيئاً ، أو حتى لو استطاع فما يعنيه هذا إلا فى القليل ، فأمره لربه خالقه ....

يرى أحمد خيوطاً طويلة لا تنتهى من الدم الأحمر تخرج من أجزاء متفرقة من جسمه لتعود وتدور حوله فى حلقات ودوائر تزداد اتساعاً . ثم هو فى عين إعصار عات يمتصه ويصعده إلى طبقات عليا يرى منها أمواج البحر وهى تكتسح أكواخ وبيوت الصيادين على الشاطىء ، ثم تحمل الرياح العاتية سفن الصيد بالصيادين وتتلاعب بها وبهم والسمك يتطاير فى كل اتجاه .....

يحس أحمد برأسه وكأنها بوابة كبيرة تشطرها سكين ضخم فتفلقها نصفين ... ويظهر له مخه وتجاويفه ، وخيوط الدم تنساب فى انثناءات سريعة ومنتظمه ، ثم مطارق خفيفة تدق هنا وهناك وتسمع أذناه أصوات الدق فتنفتح عيناه فى غضب مصحوب بذعر .... وبسرعة تعود الرأس كما كانت .... وتهدأ أصوات الطرقات تدريجياً .... ويحس أنه يسقط من عل وأنه يريد أن يصيح ولكن الأصوات تنحبس ... ويحس أنه يجرى مسرعاً إلى هاوية ويريد أن يقف ولكنه لا يستطيع ، يحاول أن يمسك ساقيه بيديه فيفشل ، ثم يصل إلى حافة الهاوية ، وإذا بقاعها يندفع عاليا حتى يتساوى مع مطح الحافة وتزول الهاوية ...

وقد يطول التفكير فى مسألة البدء بالتنمية الاقتصادية أم بالتعليم ، ونصبح تائهين فى حلقة مفرغة ، مقتربين من حكاية الدجاجة أم البيضة . أما هذه المسالك القصيرة الموصلة إلى رخاء اقتصادى وارتفاع فى الدخل القومى ، فقد يكون هذا ممكناً فى حالات مثل اكتشاف البترول أو مناجم لمعادن مطلوبة . . . وبشدة عاجلة .

وقد ساد فى مجتمعاتنا العربية إحساس بأننا نقدر القيم (الروحية) ، بينما الغرب يقدر القيم (المادية) . والظاهر أن هذا الأساس ليس سليماً تماماً ، فالبشر عامة اجسام وأرواح ، والمقصود هنا السواد الأكبر الأعظم من البشر ، وهناك على الطرفين شواذ ، ولا حكم لنا عليهم . صحيح أن لنا — كعرب — قيماً روحية إيمانية لا بد من الاعتزاز بها وتقويتها ، وهى قيم غنية جداً لأنها مستمدة من الدين ولأنها جاءت من السلف . وما يجئ من السلف الصالح ويتمشى مع مجريات العصر فمرحباً به . ولكن اتجاهات مثل التواكل والمبالغة فى التأنى وانتظار الفرج . . . هذه لا نجد لها مكاناً فى عالم اليوم .

قد نجتمع ونفكر سوياً — وهذا خير وفير — فى إمكانية أن يسير التقدم الاقتصادى يداً بيد مع التقدم التربوى . فالتقدم التربوى حادث مع ارتفاع ومضاعفة ميزانية التعليم ، وهذا شرط أساسى وعدم حدوثه فكل أو غالبية ما يجرى فى محاولات اصلاح التعليم تكاد تفشل . . . . . والتعليم فى مصر فى حالة تدعو إلى التفكير والحزن ، ولن يكون إصلاحه ممكناً إلا بنظرة جديدة وثورية فى ميزانية التعليم . إصلاح بدون زيادة اعتمادات — مالية وليس بالضرورة أن تدفع الدولة — أمر يكاد يكون مستحيلاً . وقد يحب البعض أن يرضى المسئولين بأن هذا الاصلاح (المجانى) ممكن . . . وهذا وهم ، بل فيه خطر داهم .

كما أن تقدماً اقتصادياً فى الزراعة والصناعة والتجارة وإعادة بناء الدولة إدارياً دون أن تسنده وتعضده قوى بشرية متعلمة أمر غير معقول لا علمياً ولا منطقياً . إذن فليسر التقدمان جنباً إلى جنب . وهذه مسألة تحتاج إلى إعادة النظر جذريا فى أمور تتعلق بالتربية وبالاقتصاد .

وتستطيع التربية أن تسهم فى عملية نمو والارتقاء بالمجتمع من ثلاثة مداخل :

الأول هو مدخل الحراك : إذ تستطيع التربية أن تعد الأفراد الذين يعيشون تقاليد وعادات مجتمع تقليدى إلى تحرك جسمى وعقلى واجتماعى لمجتمع يتطور . والمقصود أن يكونوا على استعداد للتوافق مع المجتمع الجديد .

الثانى : فهو العمل والرغبة الصادقة فى الانجاز : وهذا يتطلب قناعة لدى أفراد المجتمع بضرورة الاسهام ، ولو بأقل القليل . ولكن يومياً — إن أمكن — فى إعادة بناء المجتمع ، والتربية الصادقة قادرة على إعداد الأفراد لهذا الاسهام .

أما الثالث : فهو المعقولية : وأكرر أيضاً إن التربية الصادقة هى القادرة على تعليم الأفراد كيف يحللون ناقدين قبل أن يتقبلوا ويصدقوا ، كيف يبحثون فى البدائل قبل التصديق . . . كيف يفكرون علمياً ومنطقياً .

. . . .

هل يستطيع المجتمع بكل ما فيه أن يتمهل فى تعقل وأن يتساءل فى علمية وواقعية ويقول فى صراحة الواقع ، وفى واقع الصراحة بأن على كل فرد أن يتربى . . . . وأن يعرف كل واجبه مهما كان كبيراً أو صغيراً . . . يعرف أنه يوجد قانون وضع لخير الجميع ؟ لا بد من وجود تفاهم وتوافق

على كيفية التعامل . . . والدين المعاملة . وأن تـكون هناك القوانين الصارمة لمعاقبة المخالفين والمنحرفين فى حزم وعزم . وأن يكون المشرفون على تنفيذ القوانين هم أول من يحترمونها ، وعقوبة المخالف منهم أشد . وعقوبة من يعلم أشد من عقوبة من لا يعلم .

ويجب أن نبدأ بتعليم من لا يعلمون بالقوانين التى تحدد المعاملات فى المجتمع وباستخدام أجهزة الاعلام ودور العبادة ، والعقاب ضرورى . فلا يصح أن ينقل التليفزيون إلى البيوت أقذر الألفاظ فى مباريات كرة القدم ، والرياضة أخلاق . . . . ولا يعاقب من يخدش الحياء فيستشرى ، والمفروض أن الشرطة فى خدمة الشعب ، والمشاهدون قطعاً من الشعب ويجب أن يحموا .

إذا صارت فى العقوبات استثناءات فقل عليها السلام . فالمستثنى يزيد مخالفاته لأنه لا يعاقب ، ومن يعاقب ينتقم لنفسه فى غفلة من القانون . وكنت أرجو أن ينجح الدين فى أن يخشى الفرد الله سراً وعلانية ، والقانون الإلهى واضح فى هذا ، تلك مسئولية ضخمة تقع على كاهل خطباء المساجد ووعاظ الكنائس .

أن يعمل المجتمع بأفراده على الاسهام فى النمو والتنمية بالعمل واحترام القانون . . . . احترام من كل فرد كبيراً كان أم صغيراً . . .

هذا تحد حضارى :

وحتى لا تنطفئ الشمس . . . . . .

جدير بلجان تطوير التعليم أن تدرس فى عمق وفى صدق موضوعى العلاقة بين السلطة فى المجتمع والتعليم ، وما زال الاعتقاد قائماً بأن تربية

الفرد تربية سليمة أمر يتطلبه التطور الاجتماعى متطلعاً إلى التقدم . والتربية عملية ترتبط بسيادة المجتمع ، فالغالبية العظمى من دور التعليم فى العالم النامى حكومية ، والقلة القليلة هى مؤسسات خاصة ، ومع ذلك فهى تخضع للإشراف الحكومى . وطالما أن المعاهد والمؤسسات حكومية فهى مرتبطة ومتعلقة ومنفذة لأهداف الدولة .

وقد أدركت اللجنة الدولية لتطوير التعليم برئاسة مسيو إدجار فور رئيس الوزراء ووزير التربية الفرنسى أن تحقيق مجتمع متعلم مثقف لا يمكن أن أن يحدث بين يوم وليلة ، وربما احتاج الأمر إلى أجيال . ويضع التقرير فى اعتباره عدة أمور منها : أولا : توجد هوة سحيقة تتزايد عمقاً واتساعاً فى الثروة بين أمم متقدمة وبين أمم تحاول أن تنمو . . . . . وربما كان الأمر أن محاولات هذه الأمم النامية لتقليل المسافة بينها وبين التى نمت تبوء بالفشل مع حصول تقدم واضح عند الأمم المتقدمة ذلك لأن هذه الأخيرة تنمو بسرعة أكثر مما تنمو به الأمم التى هى أقل . وثانياً : ماذا تعنى التربية ؟ وقد ازدادت المجتمعات تعقداً وتتضخم وتتزايد المعرفة حتى تكاد الأنفاس تتقطع وهى تحاول اللحاق بها . وقد صار شك فى فائدة الصيغة الحالية للمدرسة بوظيفتها التقليدية ، والتعليم العالى بصورته الراهنة . . . . . وربما أرى أن الأمر الهام ، والهام جداً لا فيما يتعلمه المتعلم من محتوى ، ولكن فى أن يتعلم المتعلم كيف يتعلم ، وأن يعلم المعلمون المتعلمين كيف يعلمون أنفسهم بأنفسهم . ثالثاً : وربما قد أصبح من الأمور الملحة جداً الاهتمام بتعليم الجماهير وهى ذات فعاليات وتأثيرات فاعلة بقوة فى المجتمع . وحتى إذا نجحنا كل النجاح — وهو أمر مشكوك فيه فى تصورى — أقول إذا استطعنا تعليم الصغار كما يجب فسوف يظل الكبار مثار خوف لنـــا . من تأثيراتهم التى تتعارض أحيانا مع ما يتعلمه الصغار ، ثم إنه يصير شك فى تعلم ابتدائى فى فصول تزيد الكثافة فى بعضها عن خمس وخمسين طفلا تراصوا فى صعوبة على مقاعد يصعب الجلوس عليها .

وهناك دول نامية حاولت أن تستخدم تكنولوجيا تربوية متقدمة ، ولكن محاولاتها ذهبت أدراج الرياح إلا من بعض الآثار الخفيفة ، إذ أن البذرة لم تجد الأرض الطيبة ، يعنى أن المحاولة لم تجد المستوى الاجتماعى الخاص للآباء ، بل لم تجد المدرسين الصالحين للعمل ، وصار هناك هذا البون الواسع بين تكنولوجيا تربوية متقدمة وبين إطار ثقافى واجتماعى متخلف .

ويرى عالم سويدى اسمه أوستن أوزن أو هوسين ونسميه أحيانا حسين ! ! يرى فيما يرى ويتحدث عن دلائل عدة تشير إلى عجز التربية عن الحلول محل الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية . وهو يرى ، وقد أرى أنا معه فى تحفظ ، أن هذه الإصلاحات يجب أن تسبق تطوير التعليم تطويراً كبيراً .

(بهذه المناسبة منذ وصلت القاهرة منذ عدة اسابيع وكل يوم أطالع فى الجرائد عن تطوير التعليم . . . أجمل التهانى)

ويجب أن نحترس وأن نتكلم فى حذر فإن هوسين وأحمد فى رأيهما أننا لا نستطيع تغيير بناء مجتمع وإعادة تشكيله ورفع مستوى المعيشة فيه بمجرد ادخال نظم تعليم متقدمة ، إذ لا بد من تغيرات أخرى . . . التربية هامة جداً ولكنها ليست كل شىء ، بل هى جزء من مسلسل مترابطة أجزاؤه .

. . . . .

فى السويد ، فى أقصى شمال أوروبا ، كان هناك نقاش حول تطوير التعليم واصلاحه منذ بداية هذا القرن أو قبله بقليل ، وكان الكلام حول الإزدواج أو الثنائية فى نظام التعليم . . . فرق بين الأطفال من أسر موسرة وأسر غير موسرة ، كما كان الحال عندنا أيام زمان . فى السويد أعلن

الحزب الاشتراكى الديموقراطى لإيمانه بالنظام الشامل الذى يضم مرحلة التعليم الإلزامى . وبعد أن تولى الحكم فى بداية العقد الرابع لم يلق إلى التعليم أهمية كما كان متوقعاً منـــه وألقى بمعظم الاهتمام إلى الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية المتصلة بمسائل ومشاكل العمالة . ولم يتأت الالتفات إلى التعليم وتحسين أوضاعه وتطويره إلا بعد الحرب العالمية الثانية وبعد أن كانت الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية قد سارت شوطاً كبيراً . . . .

فى البلاد التى قد يصبح التعليم فيها بديلاً ديموقراطياً لأصل وحسب ونسب وعقارات وثروات . يعلو صوت المنادين بتكافؤ الفرص . وقد يلقى التغيير هنا مقاومة على المستوى السياسى ، ونحن ما زلنا مع أوزين أو حسين فى السويد . . . . . وقد يستريح القدمون بالأمر ويبقوا التعليم كما هو ولا داعى لديموقراطية أو تكافؤ فرص . ولكن حدث فى نهاية الخمسينات أن تحولت المدارس فى ربع المناطق التعليمية إلى نظام التسع سنوات الممتدة ، بمعنى أن التعليم الإلزامى يمتد إلى تسع سنوات بدلاً من ست سنوات . وهذا نفس الذى حدث فى مصر هذا العام عندما حولت أربعمائة مدرسة إلى نظام التعليم الأساسى ذى السنوات التسعة على سبيل التجريب ، كما حدث فى السويد بالضبط منذ إحدى وعشرين سنة .

وقد أجرت هيئة الإذاعة السويدية استفتاء للرأى العام ، ظهر منه موافقة ثلثى المستمعين (ممن سئلوا) على النظام الشامل (تسع سنوات) ، ومعارضة ربع الأصوات ، ولم يستقر الباقون على رأى معين . وقد عارض المدرسون النظام الجديد . لكن البرلمان أقره ونفذ . لكن كان لا بد من تجديد .

. . . .

. . . . .

التجديد والتطوير أمران ضروريان فى الحقل التربوى . ولم يحدث هذا

فى مصر زهاء ثلاثة قرون ، سبقتها قرون عاشها المصريون فيما يشبه الفراغ التربوى . . . اللهم إلا محاولات الأزهر وعمليات الكتاتيب المحدودة شكلاً وموضوعاً .

ثم عندما صار تطوير وتجديد كان أساسهما واهياً ، وعندما صار تجديد وتطوير بعد أكثر من قرن منذ محاولة محمد على كان على هيئة قرارات تصدرها نظارات ثم وزارات المعارف والتربية والتعليم فى ظل نظام مركزى . . . وقد نأمل فنقول غير مركزى أيضاً .

وكنت مدرساً ، فى فترة من هذه الفترات الأخيرة التى كانت اللوائح تتغير كثيرا والأوامر كثيرة جداً ، وتعديلات للمناهج لم تمس أعماقها . وكنت ممن يقاومون – لا حباً فى المقاومة فقط – ولكن نتيجة موقف المفتشين أو مستشارى المواد أو بعض الرجالات ذوى المكاتب الضخمة . . . إذ كان علينا نحن المدرسين أن نحسن الخضوع للتعليمات . . . وكم قلنا : إننا نحن الذين ندرس ، نعنى اننا نحن الذين نقف أمام التلاميذ وتحاسبوننا لا على أعمالنا ولكن على إجابات أسئلة توجهونها إليهم . ونتائج عمل وكد المدرس بين أيدى التلاميذ ومنهم من لا يريد أن يتعلم فلا ينتبه ولا يذاكر ، ومنهم من خاصم والديه ويريد إغاظتهما ، ومنهم المعقد من المجتمع . . . وربما منهم من يريد مضايقتى وإحراجى . . . . . الخ

لا أتصور أن يحدث تجديد وتطوير فى التعليم بطريقة عفوية أو بطريقة آلية . . . . . ولا بطريقة سريعة . إذ ما ذنب أحمد عندما يذهب بعد عطلة الصيف إلى مدرسته فيجد مناهج تغيرت ، وتعليمات جديدة ربما لم يفهمها لا الناظر ولا المدرسون . إنما الواجب أن يخطط للتجديد والتطوير ، ويعلم المدرسون والإداريون ويتناقشون فى حرية .

إن التسرع يقتل الفكرة الجديدة وإن كانت جريئة وعظيمة . وحق

للمنفذ المسئول أن يسأل عشرات الأسئلة وأن يتلقى اجابات شافية حتى يكون هو مدافعاً عن التجديد فى التنفيذ لا ناقداً له عاملاً على عدم تنفيذه بالجدية اللازمة .

وبقدر ما كان فى الطريقة الكلية فى تعليم القراءة والكتابة للمبتدئين من أفكار علمية ثبت نجاحها فى بيئات أخرى (أتكلم عن طريقة أسماها أولاد الحلال طريقة شرشر !!!) إلا أنها وجدت معارضة شديدة فى مصر . وقد أحس المفتشون والمدرسون دفئا آمنا فيما كانوا يعرفونه ؛ وعدم أمن وخوفاً فى هذا الجديد الوارد عليهم وكأن سهم الله صوب إلى علمهم ومهنتهم ، فقاوموا فى ضراوة . . . ليقتلوا شرشر هذا .

وغضب أحمد لشرشر ولم يغضب هو ! ! . . . فهو دائما يتطلع إلى الجديد المستحدث . . . . ! ! وغضب أحمد المدرس متسائلاً عن مدى الاعتماد على نشاط الجماعات وفروع النقابة . وكيف يمكن تحقيق أهداف التجديد بسبل ممكنة وسهلة ميسرة ؟ ويتساءل هل يجب أن تخضع عمليات تغيير أساليب ونظم وأشكال التعليم لقوة القانون ؟ هل لا بد أن تأتى المقترحات دائماً من فوق وبقوة ؟ وعلى الكوادر التحتية أن تنفذ سواء فهمت أو لم تفهم . ثم يحاسب الرئيس مرءوسيه من على كرسى الإدارة ، من عل ، وعلى المرءوس أن يكون محل اتهام .

وقد يجد المرءوس نوعاً من الإحراج المشفوع بضرورة أن يحاسب فى كلامه مع رئيسه لأن رئيسه يفعل هذا مع رئيسه هو ؛ ورئيسه هو يفعل هذا مع رئيسه الذى هو رئيس أعلى لرئيس أحمد ، وهذا الرئيس الأعلى (نسبيا) يفعل نفس الشىء مع رئيسه . . . عملية الإحراج المهذب هذه . . آفة . ربما كان واحد من أسبابها أن رئيسا ما ، وربما الغالبية العظمى ، لا يتصور أبداً أنه يخطئ لأنه دائماً على صواب . . . لست أدرى .

عند ما كنت مدرساً كان لى أمل أن يكون تقدم اتجاه أو فكر جديد فى عملية التدريس أو النشاط آتياً لا عن طريق رأسى — أعنى من فوق إلى تحت — ولكن عن طريق أفقى يمتد ليشمل القاعدة وهى التى تتعامل مع المتعلمين . والقاعدة تتخوم بعد قناعة ، ولا تنفذ بعد أن تزمر ولا تعرف كيف تنفذ . . .

حكاية الدرويش وصبى الحلاق

يقول أحمد

وكان يمكن أن يتحقق هذا فى عهد محمد على ، وكانت عنده فكرة واضحة وهى تكوين جيش قوى لأسباب غير خافية . ولم تكن عنده معاهد تعليم سوى الأزهر الشريف وبعض الكتاتيب واشباه المدارس الأولية . . ونهض محمد على بالتعليم بادئاً بقمة الهرم حتى تكالبت عليه — وعلى مصر — القوى الأجنبية ، وفى عام ١٨٤١ حدد عدد الجيش وبدأ صرح التعليم يتهاوى .

كنت فيما يسمى بالمدرسة التجهيزية حيث أعد للمدارس العليا . وكان هذا فخراً كبيراً لى ولأسرتى فإن (الدولة) تدفع لى ، بل أعطتنى حماراً يصعد بى إلى القلعة ، وينزل بى منها . ثم هذه الملابس المزركشة ناصعة الألوان ، ولباس للرأس يزيدنى هيبة ووقاراً . وكان لا بد وقد صرت إلى هذه الحال من النعمة أن يجلس أبى مع غيره ويفكروا فى زواجى . فقد كبرت . وكانت شوق إبنة تاجر ثرى هى المرموقة . وتزوجنا . وفرمان ١٨٤١ تدون بنوده .

وكأنما ضاع منى كنز ثمين كان فى متناول يدى ، وكنت قادراً على اقتناصه عن جدارة وعن قدرة . ولكنه ضاع ، وضاعت معه شوق بعد

أشهر قليلة . فقد أراد التاجر الثرى أن يكون زوج ابنته من العلماء المبرزين فى العلم الحديث ، ولو عنده المال يكفيه ويكفى مائه معه ، وكان قد عز عليه العلم ، ولم يكن له ابن . وقد قفلت الأبواب العلمية أمام هذا الابن الوارد إلى الأسرة تحت اسم زوج الإبنه . وتوترت العلاقات من جراء ذلك الفرمان اللعين ، وما كان ساسة فرنسا وانجلترا والباب العالى يعلمون أننى سأضار .

وجمع لا حول له ولا قوة من البشر نفذوا ما أملى عليهم . وغضبت ، وصحت فى صدرى كما شئت ، وكان هذا أقصى ما استطيع عمله . ومعى مئات بل آلاف من الأطفال والشباب غضبى . فقد دمانا المجتمع ثم خذلنا المجتمع . وكان حقا علينا أن نغضب من المجتمع .

غضبت لأننى أردت خير بلدى وأهل بلدى بتعليمى وتحسين معرفتى ، فأنا منهم ولهم . وكبتت الأمانى العظام بأوامر رجال السياسة والحرب . وهناك فى الشرق الأقصى البعيد — اليابان — بدأت فى نفس الوقت حركة تحضر وتقدم نلمس نتائجها ونعجب بروعتها .

وقد دن المصريون على اتم الاستعداد للتغيير ، وربما وجدنا فيه هدفاً لحياتنا ، فقد لمسنا أشعة من ضوء تنير بعض المجتمع وهى تنبئ متفائلة عن توقعات صاعدة وآمال مرتقبة .

أملوا فى غد خيراً من اليوم .

وكانت طموحاتهم إلى أمس ليس بالبعيد ألا يكون غدهم أسوأ من يومهم . بل إن أطيافاً من الأمل داعبت مخيلات بعض البنات ، وقد حرمت الأنثى قرونا من التعليم ، وكانت فى وقت ما دخلت الأزهر — فيما أعلم — لكن هذا قد مضى وولى . وقد سمعت البنات عن حضور حبشيات ليتعلمن

أصول عمل القابلات فى قصر العينى . استهلال مبارك . . . ربما يتطور وكان مهلاً وأد الأحلام .

. . . . . .

وجاءت أحمد أخبار عن شوق ، إذ يجب أن تعود زوجته إليه وأن يعود إليها . وقد كان . وعادت الأمور الزوجية إلى مجراها ، أما جدار العلم والتعلم فما زال موجوداً وفى تصميم أن يقف عند هذا الحد . طيب هذا ، وحماه عنده من المال الكثير . فلماذا لا يشد الرحال إلى ايطاليا أو فرنسا ، ولتكن فرنسا بالذات ، وسيرة الشيخ رفاعه الطهطاوى عطرة . واضطر أحمد أن يعمل عند والد زوجته التى وضعت طفلاً ، اسمه أحمد ، وتلاشت فكرة السفر بعد مرض عضال ألم بوالده .

. . . . . .

. . . . . .

يقول أحمد

حاولت مصر الدخول فى ميدان الصناعة ، وجلها صناعات تخدم الجيش فى هذا الربع الأول من القرن التاسع عشر ، ويمر أكثر من قرن وما زالت مصرنا فى مرحلة ما قبل الصناعة . وهى مرحلة أعلى بقليل من مرحلة الزراعة ، بل إن الزراعة ذاتها يمكن أن تكون قاصرة على كفاية بطون المواطنين وربما أيضا لكفاية أسواق أخرى فى الخارج . يتطلب الأمر فى مرحلة التحول من الداخل إلى الخارج ثورة فى الاتجاهات والعقليات ، ناهيك عن الميكنة والتكنولوجيا الزراعية المتطورة . التغير فى الاتجاهات ، وربما القيم ، خطوة رئيسية فى الدخول إلى مرحلة التصنيع . الزارع المنتظر بجوار حقله غير العامل الفاعل بيديه أمام آلة جبارة . ورائحة المصنع قطعاً تختلف تماماً عن جو الحقل .

لكن التحول إلى الصناعة أقل إشكالاً من التحول من زراعة تقليدية إلى أخرى تقدمية . ذلك أن انتقال العمال اليدويين من قرية ما إلى مكان آخر أقيم فيه مصنع كبير ، لا يعني فقط التحرك المادى ، تحرك جسم من مكان إلى آخر ، ولكن يحمل معه تكسير نظام حياة وعادات وتكوين أنماط حياتية مغايرة تحتمها الظروف الجديدة . التغير في الزراعة لا يدعو إلى الانتقال من بيئة إلى أخرى ، ولكن يتم التحول والفلاح بين نفس الجيران والأصدقاء وعلى نفس الأرض .

. . . .

ويرى أحمد السنين تطوى طياً تارة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء ، ووجوه أطفال مصر عابسة فقد خذلهم المسئولون وكان إحساسهم بهم ضعيفاً . . . بل تركوا في أحقاب كثيرة دون أن يجنوا من العلم إلا النذر اليسير ، ويرى ألوية العثمانيين ترفرف في سماء القاهرة وجنودهم يسيطرون في قوة ، وينتشرون في الدلتا والصعيد . ثم آلاف من المماليك استجلبوا من مصادر عدة . وركبوا خيولهم واستلوا سيوفهم وامتدت لهم أرض مصر في اتساع واستسلام .

وانتشر ممثلو الوالى العثمانى فى قرى ونجوع مصر ، واحتقروا الفلاحين وعاملوهم بقسوة بلغت حداً شك فيه أحدهم أن فلاحاً شرب اللبن المخصص له ، وفتح بطنه ليظهر صدق كلامه ، وحتى يكون الشك حقيقة .

وغضب أطفال مصر ، واشتد غضبهم عندما رأوا جحافل المهرة من الصناع وقد سيقوا إلى القسطنطينية ، وقد كان هؤلاء هم أساتذتهم فى الصناعات ، وأطفال مصر يتتلمذون على أيديهم . والآن قد ذهبوا . . .

. . . .

يقول أحمد باكياً

مضت أيام قليلة وإذا بنا نفاجأ بالأسطوات وقد غابوا عنا ونحن ما زلنا صبية بين أيديهم . وبحثنا عن غيرهم وكنا نعلم حق العلم أننا نبحث عن إبرة فى تل من القش . وكان لا بد أن نتعلم (شيئاً) حتى نستطيع أن نتزوج عندما نكبر . وانتهى بى المطاف إلى دكان حلاق الأسطى حسونه . وكان معى ثلاثة صبية أنا أقلهم رتبة ولذلك كان علىّ أن أعمل أقل الأعمال قيمة . وكان الأسطى حسونه المزين يقوم إلى جانب الحلاقة بتعاطى المداواة بالمحجم ، أى كاسات الهواء ، ورأيته لأول مرة فحدث لى إعجاب به وبمهارته ، ونسيت الأسطوات الذين ذهبوا إلى القسطنطينية . ثم كنت كثير الجلوس إلى رجل (وقور) تتدلى من عنقه عشرات المسابح ويرتدى ثياباً لها ألوان حمراء وخضراء وصفراء . . . . وعلى رأسه عمامة كبيرة ويملك ذقنا طويلة لون شعرها يتدرج من الأسود إلى الرمادى إلى الأبيض . ثم هو يتكلم ألفاظاً أحيانا تسمع ولا تفهم وأحيانا تكاد تسمع ولكنها تصدر منه وكأنما ضم كل ثلاث كلمات فى كلمة واضحة ، وهى لهذا لا يمكن أن تفهم . ولكن المستمعين يظهرون أنهم فاهمون . . . وأنا أيضاً .

ونادانى ذات يوم أن أكون له تابعاً وأترك حانوت المزين فهو رجل كلع قاس جاف . وأغرانى بالكسب (الحلال) إذ سيعلمنى كيف تكتب الأحجبه وسوف استطيع أن أعمل (عملاً) للمحبة أو الكراهية خاصة إننى أعرف القليل من الكتابه وهذا يكفى . . . هذا الدرويش أرادنى صبياً له .

. . . . .

. . . . .

كان الصبى فى دكان المزين يترقى فى سلم التعليم تدريجيا ويمر فى كل درجاته

إبتداء من كنس الدكان ورشه وتنظيف كل شيء فيه وإحضار الطلبات للزبائن من مكان قريب . ثم يتدرج الصبي مع تدرج عمره ، ويوم عظيم له عند ما يسمح له بمفرده أن يمسك المقص ويتعامل مع قفا زبون غالباً ما كان طفلاً صغيراً فقيراً ويستحسن أن يكون يتيماً . وكان أحمد فى حيرة فهو مطلوب لشيئين وقد حلا له موضوع كاسات الهواء ومعالجة شعر القوم بالموس والمقص ، كما حلا له هذا المجد الدرويشى الاجتماعى والسطوة المتمثلة فى موضوع الأحجبة والتمتمة ورائحة البخور وتقبل الهدايا والعطايا . ومن يدرى فربما كان هذا العمل أو ذاك أيسر فى تعلمه من الشغل مع المعادن بأنواعها أو العمارة بأصنافها وأقفية الخلق بعروضها . وقارن ووجد بعد حديث طريف مع مقوال شهى النكتة أن التخرج فى (كلية) البخور أسرع من التخرج فى (كلية) الحلاقة ، فهو على الأقل — أيضاً — لن يخضع لسلسلة من الملاحظات والامتحانات على أماكن تجمع الشعر فى وجوه وأقفية البشر ، ولن يضطر — حتى يكون أسطى — أن يدعو نقيب المزينين ومساعديه ويبل لهم السكر فى الماء و و . . . الخ مما قد يكلفه حتى يؤذن له بأن يكون حلاقاً مبتدئاً .

. . . .

ويقول أحمد

فرحت سريعاً فقد قررت أن أكون صاحب سلطة وكل علمى على يد استاذى ، وكان يعطينى القليل كل شهر أو أكثر . وذات يوم وقد بلغت طول قامته واستوت لحيتى هبرج لى ثوباً . ولبسته وصرت له مساعداً . وتزوجت فتاة اسمها شوق . وكسبت الكثير من السذج ، وبدأت أشبع واتسع بيتى وكبر مقامى بين الناس . . . . وكبر إبنى أحمد وصار غلاماً . وكان عنده كل ما يريده ، ولكن سحابة من الحزن كانت تغطى وجهه ....

ووجدته ذات يوم يشتعل غضباً .

سألته : ما لك ولديك كل ما تريد وأكثر ؟

قال : هذا يومى ، وماذا عن الغد ؟

هذا الصغير إبن الدرويش الصغير يتطاول فى أسئلة لا حق له فيها . . . ألا تكفيه بركاتى وتسابق الناس إلى ويقبلون يدى ويملأون بيتى بخيراتى — أقصد خيرات الله — وملابسه ونزواته ورغباته . . . وكل شىء تحت أمره .

قال : ما تعلمت حرفة ولا كنت صبياً ، ولا دخلت كتاباً ، ولا قرأت على فقيه . . . ولا شىء مطلقاً . . . وقد صرت تعليمياً نسياً منسياً . وفكرت من أين أتى هذا العفريت الصغير بهذه الأفكار الكبيرة . ونهرته كما يجب أن يفعل الأب عندما يحرج ولا يعرف كيف يجيب ابنه على أسئلته الحرجه ، وطردته من الحجرة وخرج من الباب . ودخلت من النافذة فى نفس الوقت الذى خرج فيه قافلة من التساؤلات جعلت دروشتى تدوخ .

من أنا ؟ وما هذا الدجل الذى أفعله ويصدقه الناس ويدفعون بسخاء ، وآكل ملء البطن ، وتكثر المسابح حول عنقى ، وأضحك على الناس ، وأبكى فى داخلى أمام نفسى . سئلت : كيف تقف أمام ربك تصلى وأنت تعلم من أنت فى غيك وضلالك ؟

سئلت : ماذا يحدث لو أن الأمر انكشف ؟

هنا انبريت وصرت هرقلاً وأنا أجيب : هؤلاء قوم سذج جهلاء لا يعرفون شيئاً ، وسهل الضحك عليهم ، فعقولهم ضيقة وآفاقهم ضحلة ودنياهم محدودة ، والمسابح تستهويهم ، والكلام الغامض يأخذ بألبابهم ، والبخور يخدرهم ، والتشيخ يقنعهم . وذكر اسم الله يخرسهم .

قال قائل : ذكر اسم الله . . . فى هذا الجو الخادع ! ! أهذا قول يقوله مسلم ، وتصور تجارة ؟

عرفت لماذا غضب ابنى أحمد ، لقد تكشف له بعض الأمر ، وأن طعامه وملبسه حرام وسكنه بؤرة شيدها الفساد والكفر والدجل . لهـذا بكى ، ولهذا يغضب . . .

ربما كان الأولى بى أن أعلمه صنعة شريفة ، ربما كان دكان الأسطى حسونه الحلاق مكاناً مناسباً له . . . ولى . وقد فات الأوان لى وقد تلوثت بالدجل والفساد . . . ربمـا أجد له مكاناً عند أسطى حلاق يقبل ابن درويش دجال .

احمد ونفسه في سفينة فضاء

إلهى يا خالقى وأنا عبدك وابن عبدك . . . . . .

أين أنا ذاهب فى هذه السفينة الفضائية . . . أرانى أعانق النجوم وأسبح فى المجرات الكونية وأستنشق عبيراً من عوالم لم نعهدها نحن سكان الأرض . وقد فقدت السرعة معناها وصرت فى اللامنتهى وطفت معنوياتى على ما دياتى . . . وصرت لا شىء فى شىء لا أدرى ما هو . وتبخر جسمى وصرت عقلاً . . . . يسمو .

. . . . . .

من بعيد عميق أحس أحياناً إحساسات باهتة لا طعم لهـا ولا لون ولا رائحة ، ولكن أشياء حادة تعبث فى جسمى ، واحس أصواتاً خافتة ولكنها ذات ألوان ، بل أشم طعماً غريباً له إيقاعات . . . . . وتتلمس أصابعى نغمات ، وبحس لذيذ ألوان أطياف مختلطة فى تموجات . . . . .

وتمضي سفينة الفضاء سابحة فى الكون الواسع فى انطلاق هو الصاروخ .... لا ، هو الشهاب ... لا هو أكثر آلاف المرات من هـذا . وأحسست أن السرعة ترف والزمن يضيع ويصبح الأمر فوضى بالنسبة لى . وأردت أن أبحث عن الجوع وعن العطش فلم أجدهما .

قلت يا أحمد فلماذا لا تبحث عن ربان هذه السفينة الفضائية المجنونة ، ووجدت نفسى قائماً بل سابحاً فى فضائها متجهاً إلى حيث يجب أن يكون .... ولم أجده ... وصمت وصمت .... وعرفت أنى هنا وحدى . وقلت أمرى إليك يا ربى . . يا خالقى . سألت نفسى ، ونفسى سألتنى .... إلى أين ؟ وإلى متى ؟ قلت يا نفسى أنت أعلم بما بى وأمرى وكلته إلى ربى ... حلِّ عنى . قالت نفسى : وإلى أين ؟ فنحن معاً على الخير أو الشر . وأمسكت نفسى بى فى شدة وقد استسلمت لهـا ، ولـكن فى عزة ، وضمتنى إليها ، وأحببت هذا ، واحتضنتها فى لهفة . . . وضحكنا . . . ! ! !

قلت : يا نفسى إن السفينة الكونية تسبح عابثة معربدة بين المجرات والنجوم والكواكب ، وأنا أخشى علىَّ — أقصد يا نفسى — من مهالك نحن فى غنى عنها ، ولا يوجد للمركب قبطان ولا حتى بحارة كونيون . . . هلا تغيثينى وتغيثى نفسك . وابتسمت وهى تدرى مغزى ما أقول .

وقادت نفسى مركبة الفضاء ، واستشعرت هدوءاً وراحة ، فقد تعهدت نفسى بى ، وهذا جميل . واشتقت إلى الزاد ، فإذا بشىء ينزلق فى بلعومى ، وأحس به يملأ معدتى ، وأعقبه سائل كفانى وأشبعنى . سألت نفسى وهى فى موقع القيادة . . هل أكلت ؟ قالت : وأطعمتك فى نفس الوقت . . . لعلك شبعت ؟

. . . . . .

أحسست باختناق مفجائي . . . وأحسست بمركبة الفضاء تترنح وكأنما هي تهوى إلى أعماق كونية سحيقة . . . بل إلى لا حيث هناك منتهى .

فى ثانية هى أقل وأقل من وهج الوهج رأيت عينين تحتهما لثام وخلف هذا لمحت رجلاً فى لهفة وخوف وسمعت همهمة . . . . . كل هذا فى معشار من الثانية الخاطفة .

وصحت إلى نفسى : ماذا حدث ؟ قالت : مالك هذا الطفل المدلل . . نحن فى طريقنا فاهدأ . قلت : أى طريق ؟ وكيف أهدأ ؟ . . . وماذ يحدث ؟ وأنا أخاف نفسى وأخشاها ، فآثرت الصمت الرهيب . وأصدرت نفسى إلى أمراً أن أهدأ . ولم يكن أمامى إلا أن أهدأ . فهدأت .

ملايين النيازك والشهب والتفجرات فى هذا الكون الهائل ، والسفينة تمرق بين كل هذا وذاك . . . والله يرعاهما . . . وضياء ساطعة ، ثم ظلام دامس ، وصعود وهبوط ، ثم اقتراب من الشمس . . وفجأة تبعد عنا ونحن نبعد عنها . . . . وتصيح نفسى قائلة : أمامك مجهر أنظر فى زاوية XLY 0047 ، ونظرت فى الزاوية المجهرية بسرعة ولا أدرى كيف . قالت : هذه الأرض . قلت : والله . . . وأنا أرى نقطة فى بحر . قلت : كيف عرفت أنها الأرض ؟ قالت : ألا ترى بيتنا واضحاً .

الحق . . الحق . . أننى بدأت ، وللأسف الشديد ، أشك فى قوى نفسى العقلية . وآثرت الصمت المريب . وجاءنى صوتها : إنه بيتنا فى أمريكا . . . لقد أهمل من دفعنا له الدولارات ليعتنى بالحديقة . فتمــد هلكت بعض نباتات الصبار ، ثلاث نباتات بالضبط ، هل رأيتها ؟ قلت : الحقيقة لم أرها . قالت : عرفت الآن ، إذ بعد اعلانك بالزاوية كان

لا بد أن أحدد القارة والولاية والمدينة والشارع ورقم البيت . لا عليك نسيت . المرة القادمة . لكن الآن استعد فنحن إلى اللا منتهى متجهون ..

أقول الحق ، والله هو شهيد ، علمى بدأ يتضاءل ، كل ما أذكره أن هنالك عوالم بينها وبين الأرض مسافات تقاس لا بالأميال ولا بملايين الأميال ، ولكن بقياس الضوء ، وسرعة الضوء ١٦٨,٠٠٠ ميلاً فى الثانية الواحدة . أنت تعمل عمليات حسابية — إذا استطعت — لتعرف كم المسافة فى سنة ضوئية ، يعنى اضرب هذا فى ٦٠ لتحسب المسافة فى دقيقة — ثم فى ٦٠ لتعرف المسافة فى ساعة ، ثم فى ٢٤ لتعرف المسافة فى يوم ثم فى ٣٦٥¼ لتعرف المسافة فى سنة ضوئية . لا تلجأ إلى هذا الذى اشتريته ببضعة جنيهات ليحسب لك عمليات الضرب والقسمة والنسبة المئوية والجذر التربيعى . إذا حاولت معه ، فسوف يقوم ويلطمك على خدك الأيمن فى أحسن الظروف .

. . . .

إلهى ، يا خالقى ، ويا مبدع هذا الكون ، وأردت لى أن أعيش على كوكب الأرض ، وهو كوكب جميل وصغير صغير صغير إلى أقصى حد الصغر وأنا فى هذا الكون الهائل الذى أبدعت خلقه وتنظيمه .

أسألك يا ربى وأنا فى ملكوتك الهائل الجبار ونحن على كوكبك الصغير جداً ، وعلى جزء صغير جداً منه ، وقد نشأ فيه علماء أفذاذ فى عصور مضت . ونشأ فيه أفراد أفذاذ فى سنوات قليلة مضت ولكنهم لم يجدوا الفرصة بين أهلهم وعلى الأرض التى عاشوا عليها ، أرض مصر ، وهاجروا وأنجزوا وحققوا انتصارات علمية هائلة . وهم الآن غضبى . أطفال كبار غضبى .

فى داخل كل واحد منهم طفل غاضب . هو يصيح غضباً ويتألم فى غضب ؛ إذ كم كان يسعده أن يضع علمه بين أهله وعلى تراب بلده .

أيها الناس الذين تسمعون وتقرأون ، السلطان سليم أخذ خيرة الحرفيين عنوة إلى الآستانة . فنضب معين الصناعة الفنية فى مصر . اليوم ترجو صفوة العقول وصفوة الأيدى العاملة ، بل أية أيد عاملة . الذهاب إلى مرتبات البترول . وأبحث عن عامل ماهر فى القاهرة فلا أجد إلا عاملاً رديئاً زاد دخله فى الأسبوع عن مرتب رئيس جامعة ! ! أليست هذه مصيبة ، ولكنها الواقع ... المرير .

. . . .

حطت السفينة على كوكب ما فى فلك ما . وجاءت نفس أحمد إليه ، وقد اشتاق إليها واشتاقت إليه . وجلسا فى إحساس بشىء من الإرهاق ، وبعده بشىء من (الجوع) . واستراحا وشبعا بطريقة لا يعهدها سكان كوكب اسمه الأرض . وتركا السفينة وكانت قد حطت على أرض هــذا الكوكب . ووجدا حشدا فى استقبالهما . أفراد عجب فى كل شىء ، ألوانهم ، أزياؤهم ، شكلهم ، رؤوسهم أجسامهم أقدامهم . أما اللغة فقد انسابت إلى أحمد سهلة ، ولم يتكلم ولكن أفكاره انسابت إلى عقولهم سهلة . وهدأت نفسه إلى نفسها فانسحبت إلى داخليته . وذهب معهم . وفى قاعة ضخمة فيها آلات وأجهزة ومجاهر لم يسمع حتى فى الأحلام عنها ، توقف وسألته نفسه فى داخليته أن يسألهم عن الأرض وما يجرى فيها . وسألهم دون أن ينبث ببنت الشفة ، فأخذوه إلى مجهر ضخم . أدخلوه فيه ورأى إضاءات غريبة فى ألوان لم يعهدها ورأى أنه يقترب إلى مجاهل بعيدة . . . أحس أن حاضره يذهب مسرعاً إلى حاضر آخر . سوف يعيش حاضراً آخر . يقول أحمد : بُعد هذا الكوكب عن الأرض لا يستطيع عقلى أن يتصوره فهو يقاس بالسنوات الضوئية . وأنا برى الأرض ، وبالذات

فى الأسكندرية عام ٣٠ قبل الميلاد ، وكليوباتره مع وصيفتها التى حملت سلة بها حية سامة . أراها . . أراها

إلى كوكب آخر نقلونى إليه فى سرعة وكان بعيداً ، ورأيت معركة قرب أكتيوم وأساطيل كليوباتره وأساطيل الرومان . . أراها ، وأرى دماء القتلى تمتزج مع ماء البحر . . . . لحظات لا أكثر . أرى التاريخ كما حدث وكما وقع ولا يستطيع أحد أن يزيفه أو يحوره ، أراه بعينى رأسى بل واسمع الحوار والأصوات . أية متعة لكاتبى التاريخ ، واعتقد أن غالبيتهم لو أتيحت لهم فرصة ما أنا فيه لمزقوا كتبهم وأعادوا كتابة ما حدث بصدق فى التاريخ . ونحن ندرس التاريخ كما كتبه المؤرخون ، وربما هم منحازون ولا يقولون كل الصدق . وعلى التلاميذ أن يصدقوا وأن يحفظوا حتى ينجحوا .

وانتقلت إلى كوكب آخر ، وما زلت محل إكرام وإعزاز ، وإذا بى أرى عشرات الآلاف من فلاحى مصر وعمالها ، وجوهر الصقلى على منصة يصدر أوامره ، وحبال على أعمدة . . . . ورجال أشداء بالقرب من أجراس متصلة بالحبال . وفلكيون يرصدون النجوم . والصمت يسود فى ترقب . وتحط طيور على الحبال فتدق الأجراس ، وتبدأ جموع من العمال فى بناء المدينة الجديدة . والفلكيون فى حيرة فكانوا فى انتظار شىء ما ، وعندما بدئ البناء صاح جوهر ، وقال الفلكيون : القاهر فى الطالع . أرى كل هذا . أعظم الكتاب وأعظم المخرجين (السينمائيين) ، وأعظم المصورين بأعظم الأجهزة لا يستطيعون أن يظهروا ما أراه . وبدئ فى بناء قاهرة المعز لدين الله الفاطمى . . . . .

ونقلة أخرى إلى كوكب قريب نسبياً من الأرض ، وتطلعت إلى ساعات مضت فى ميدان روكسى ، ورأيت ما حدث لى بالضبط كما وقع

وكأنه شريط (سينمائى) أحكم تصويره يمر أمام عينى ، سامعاً الأصوات وكان يتبقى أن أحس الآلام ، ولم أحسها . . . . ومن أعماقى شكرت المولى القدير . وكان بى إحساس أن جولتى فى الماضى قد انتهت ، وكان على آلة الزمن أو عجلته أن تأخذنى إلى شىء من المستقبل القريب ، وكان هذا أمراً يشغلنى دائماً ، وحاولت دراسة « علم المستقبل » ، وأعجبنى جداً كتاب « صدمة المستقبل » ، وشاهدت عدة مرات (الفيلم) الذى أنتج عن هـذا الكتاب ويحمل نفس عنوانه . وأتصور مستقبلاً للتربية مبنياً على ما حدث فى الستينات والسبعينات . وهو مستقبل يزيد الفجوة الثقافية بين الدول المتقدمة والدول التى تنمو . . . . وهذه الأخيرة عليها عبء ضخم ومسئولية لا أدرى كيف تتحملها . وأخشى من استعمار ثقافى فى العقود القادمة ، وقد لا يستطيع المال أن يحارب هذا الاستعمار . وليس الموقف يتحمل إجراءات إصلاحية تطويرية فى التعليم تبدأ بعمل أوراق عمل ثم دعوات لحوار يتلوه حوار ، ويتمخض هذا عن رغبة فى مزيد من حوار .

كان الله فى عون المسئولين ، وقد يحس بعضهم إحساسات معينة ، وفى ذهنه أفكار معينة ، ولكن التيار السائد يسود ، وتظل الإحساسات إحساسات والأفكار أفكاراً . . . . . وتمر الأيام ! !

فى تصورى أن إصلاح التعليم فى محاولة لقفزات تقدمية (نسبياً) يحتاج إلى تضافر جهود متنوعة فى تخصصاتها . لا ينفصل التعليم عن المجتمع وهو متأثر بكل أنشطة المجتمع . وللتعليم المريض العليل كالجسم الذى إذا اشتكى عضو فيه تداعت له كل الأعضاء بالألم والقلق والسهر والحمى . لهذا فإن اجتماع بعض العاملين فى الحقل التربوى لتحوير وتطوير وتعديل وتبديل وإصلاح إلى آلاخ . . . أمور أمامها عشرات من علامات التعجب والاستفهام .

يهتم غالبية أفراد المجتمع بالتعليم ، فإما أنهم مروا به ، أو أولادهم يتعلمون ، أو أنهم مصرون على ألا يتعلموا . ويقول المربون إن التربية قوة ، ويزيدون القول بأن العصر عصر التربية . هذا حسن ، ولهــذا فإصلاح للتربية (أو كما يحب البعض — للتعليم) يستدعى بالضرورة أن يجلس علماء الاقتصاد والاجتماع والسياسيون والعسكريون والنفسانيون والأطباء . . . وغيرهم مع رجال التربية القادرين . تتضافر كل هذه التخصصات وغــيرها .

* * *

من العاهات الثقافية والآفات الحضارية ما يحدث فى بعض الإجتماعات لإصلاح أو تطوير أو بحث كبير . ربما كان كل واحد من المجتمعين استاذاً جهبذاً وفطحلاً كاملاً ، أو بعضهم ، أو أن هذه صفات أعطاها لنفسه واقتنع بها . ثم يحاول أن يقنع المجتمعين بها ، وتتحول قاعة الاجتماع إلى حلبة استعراض للعضلات العلمية ، وهنا تنهار أروع وأهم قواعد النقاش فى جماعة .

البعض ينصت ليهاجم أو ليعارض وليثبت أنه أقدر الجالسين علماً . . . وقد يتفق إثنان فيصفق كل للآخر ويمطر كل الآخر سيلاً وراء سيل من عبارات الإعجاب والإنبهار . . . ونادراً ما تجد واحداً يقول : لا أعرف . والبعض يعرف كل شىء عن كل شىء . . . إلى هذا الحد من الدجل العلمى . . . . والبعض يجلس صامتاً حتى يعرف اتجاه الكبير أو الرئيس الذى يقود الاجتماع ثم يتكلم بما يحب هذا الكبير أن يسمعه . أكرر وسوف أكرر كما مارست الدراسة والعمل والحياة فى دولة متقدمة أن هناك فرقاً بين الرئاسة الإدارية والقدرة والأصالة العلمية فى تخصص لم يتخصص فيه الإدارى الكبير . هكذا يجب أن تسير الأمور . الأمر مشاركة وشورى . . .

ولنبتعد عن المعنويات ليس . الصوت العالى بالضرورة يعبر عن علم رصين ، ولا الصوت الخافت دالاً على قلة دراية ، ربما العكس هو الصحيح ، وربما هذا هو الأرجح . لو سادت العلمية والموضوعية فى اجتماعاتنا وأطفئت نيران الحسد والحقد سوف يصير الحال إلى أحسن . . . .

كان لا بد لى أن أتدخل فيما يقوله أحمد وأحاول توجيه مسيرة أفكاره فى غيبوبته ، وانتهز الفرصة لأذكر القارئ بأن أحمد فى غيبوبة وهو يأخذنا فيها إلى آفاق غريبة . . . . ولا تسأل كيف تم تسجيل كل هذا ، فأبحر العلم عميقة ، والغوص إلى أعماقها صعب . . . ولذيذ . ولنعد إلى عجلة الزمن وآلته ، وتوقف الحديث عند « صدمة المستقبل » . . . . يا أخ أحمد ماذا ترى إذا استطعت بفكرك أن تطوى السنوات إلى القـــرن الحادى والعشرين ؟

ربمـا أكون قد أغضبته ، فتململت أفكاره ، وربمـا أحس ُعقلة أو حبسة فى نطقه ، لأن صمتاً ران . وانتظرت ، وطال الانتظار بعض الشىء ، وقطعه أحمد فى عناد وتحد . . . .

قال أحمد : كان يمكن أن يمر هذا اليوم كغيره من الأيام فى كُتّـاب الشيخ عبد الوهاب قريباً من باب الفتوح . لـكن شيئاً عجباً حدث . ووجه العجب فيه أننى تطاولت بالحجة فيه على سيدنا ، وهو طويل عريض وأنا قزم صغير بالنسبة لجسمه الفارع . ويظهر أننى أفحمته فلم يستطع أن يقرع الحجة بالحجة ، واستخدم سلاحه فى الاقناع وهى عصا طويلة ، قربنى منه وألهب ظهرى بها ، ولم أحس برداً ولا سلاماً ، بل آلاماً دفعت الدموع إلى عينى . . . . بل إنه طردنى من الحجرة لقلة أدبى ، وسوء تربيتى . ووجدت نفسى فى أحضان الشمس ، واستقبلنى بالترحاب وفد من الذباب أشبع وجهى قبلات وأحبوا المقام عليه .

وذهبت إلى البيت غاضباً ، وضاقت الجدران حولى ، وأصبح المكان خانقاً ، فاندفعت خارج البيت قاصداً متجر والدى فى الغورية ، وهو عطار له شهرة وتأتيه التوابل من أقصى الدنيا ومن أقصى مصر أيضاً ، وله مكانة مرموقة بين التجار حتى لقبوه بالشهبندر ، وكان يضحك كثيراً ! ! وكان يعقد مجلسه كل صباح أمام متجره مع رفاقه يشربون القرفة واليانسون ويدخنون ، بينما هم يتحادثون . وما أكثر ما جلست قريباً منهم استمع إليهم ، وأتعلم وأعرف ، وكان معهم أحياناً رجال أفاضل وعلى علم . وأعجبت بما كانوا يقولون . وكان هذا هو السبب فيما ألهب ظهرى اليوم ، فقد عارضت سيدنا بما عرفته وتعلمته منهم .

وصلت ورآنى أبى ، غاضباً . واقترب منى وسألنى . . . وانهمرت الدموع من عينى . . . .

كان لا بد لى ، وأنا لست أحمد ، أن أتدخل مرة أخرى ولكن برفق فأكملت القصة التى سيحكيها لوالده . وربما أحس شيئاً من الحرج ، وبدأ يتكلم هذه المرة فى الموضوع المراد وقال أحمد : عفواً فقد أخذتنى ذكريات أجدادى إلى الوراء ، وأنا لست منهم براء ، فقد تعبوا وغضبوا غضباً شديداً .

الناس والفئران

عفواً وأنا أقول إنه ليس من المستبعد أن يتحدث المربون فى المستقبل القريب عن الأنزيمات التعليمية وكبسولات البروتين للذاكرة ، بل وحبوب مضادات حيوية أيضاً للذاكرة ، ثم كيمياء المخ . وقد أتعب علماء النفس أنفسهم سنوات كثيرة عاملين بكل همة وجدية مع الفئران والحمام والقرود

. . . الخ فى محاولات مضنية للوصول إلى أعماق عملية التعلم حتى يمكن أن ستفيدوا منها فى تعليمهم البشر . ولـكن للأسف الشديد ظلت الحيوانات حيوانات وظل الطفل البشرى بشراً .

لـكن لا ، وعلينا أن نتمهل فإن هذا المجهود العلمى ثرى وقوى ، ومهما قيل ومهما كتب ، فالعلم بالمرصاد وفى قوة .

أحس أننى بين أحراش ، وفيلة وأسود ونمور ، وهذا فهد متربص ، وهذا قرد خائف . وهذا فيل يتحدى . والغابة كبيرة وأشجارها كثيرة والحيوانات فيها طبقات . والشريعة هنا واضحة ، والغلبة للأقوى . ومع ذلك يعيش الضعفاء من الحيوانات . ربما هى ناعمة بحياتها . أذكر أننى ذات مرة رأيت حصاناً فى مزرعة ، وكنت أقود سيارتى ، وقد اضطجع مسترخياً فى جلسته متطلعاً إلى الطريق فى كل الهدوء . سألت نفسى وأنا أدرسه ، وقد توقفت ، وهو فى جلسته التفكيرية : فيم يفكر ؟ قطعاً هذا الحصان فى حالة من التفكير . . . فى الماضى ؟ فى الحاضر فى المستقبل ؟ أمامى فى عينى هو مستريح ناعم البال ، ولـكنه يفكر من نظرات عينيه . . . أو هكذا تصورت . وإذا كان لا يفكر فماذا يدور فى عقله ؟ وله عقل :

قطه وسيمة على سطح عربتى فى يوم شتاء والشمس دافئة واستلقت عليها فى هدوء وسعادة الدفء ، واقتربت من العربة ، ورأيتها مستريحة وعيناها الزرقاوتان واسعتان ومنفتحتان . وقفت أمامها ، ولم تحس بى ، ووجهها كله هدوء وطمأنينة ، وكأنها تحلم ، وربما هى فى حلم يقظة ، من يدرى ؟ وأخذتها فى حنان بين يدى ، وهى طيعة فى خضوع اللاهفة وأسكنتها بجوار السيارة . أين كان تفكيرها وصار إليه انفعالها ؟ من يدرى ؟ هى — القطة — كانت حية وتفكر . . . وربما تحلم ؟ ربما كانت تستمتع بخبرة سابقة ، وتأمل فى خبرة لاحقة ؟ من يدرى ؟

ولنا مع الفئران قصة علمية ، ولا علاقة بها مع القطة التى يقولون أنها تحب أكل الفئران بعد أن تتلذذ بتخويفها مظهرة سيطرتها .

إذ إرتأى علماء من الستينات والسبعينات أن يتعاملوا مع الفئران لخير الإنسان . . . ربما هم على حق ، فإذا قتلوا مئات الفئران ليشرحوا أمخاخها ، فلا أحد يعارضهم إلا القطط وجمعية الرفق ، بالحيوان ، أما إذا أجروا تجاربهم على أمخاخ من البشر وقتلوهم ، فربما تقوم الدنيا ، إذا عرفت . وخير أن نترك الإنسان ونتعامل مع الفئران .

وربما قد ترك العلم الحديث ، وهو يبحث عن التعلم والقدرات العقلية ، المتاهات والسلالم إلى دراسة كيميائية مخ الحيوان . . . وصولاً إلى كيمياء التعلم . وخضع مخ الفأر إلى دراسة فاحصة اشترك فيها عالم النفس مع الكيميائى مع عالم فى فسيولوجية الأعصاب . . . وغيرهم ، وقيل إن هناك تشابهاً بين كيميائية مخ الفأر ، ومخ الإنسان . وكان مدار من الدراسة عن الذاكرة . والمعروف أن الشخص الراشد يستطيع أن يتذكر سبعة أرقام بعد أن يسمعها أو يقرأها مباشرة . ولكنه لا يستطيع تذكرها بعد مضى نصف ساعة .

نحن أمام نوعين من الذاكرة ، ذاكرة مباشرة وعاجلة ، وأخرى آجلة تمتد إلى فترة طويلة . فى الأولى التذكر حاصل وفى الثانية مفقود . ويرى العلماء أنه يحدث فى المخ تأثير كهربى / كيميائى لمدة قصيرة . بعد أن يمر المختبر فى خبرة سماعه أو قراءته الأرقام السبعة . والفرض هنا أن هـذا التأثير الكهربى / الكيميائى سوف يمد أجل فترة الذاكرة المباشرة إلى مزيد من الدقائق ، ثم تعقب هذه العملية تموين المخ بزاد كيميائى فى طبيعته . ذلك أن العملية الأولى — فى حالة تمامها — تؤدى إلى إنتاج كميات من البروتين وإلى مزيد من مستويات النشاط الإنزيمى فى خلايا المخ . هذه العملية الثانية

تستمر إلى مدة أطول ، بل هى العضد الفسيولوجى المؤدى إلى إطالة فترة الذاكرة .

لكن ماذا يحدث لو أنه بطريقة ما أمكن وقف العملية الثانية ؟ أجرى عالم التجربة التالية : فأر على سطح يعلو عن أرضية الحجرة بضعة بوصات ، ولكن الفأر لا يطيق السكون فهو يتحرك ليقع على الأرضية . ثم يعاد إلى السطح ليقع من فوقه على الأرضية مرة أخرى . . . . ويكرر الفأر هذه العملية تحت اشراف العالم . حتى يأتى يوم يكهرب فيه العالم أرضية الحجرة . ويسقط هذا الفأر الشقى المسكين على الأرضية ويغضب من ألم كهربته . وبقى أن يعرف العالم ماذا يسلك هذا الفأر بعد مروره فى خبرة الكهربة هـــذه .

يأخذه فى تساؤل علمى ويضعه على السطح العلوى ، وينتظر أن يعود الفأر الشقى إلى لعبته المفضلة . ويطول انتظار العالم أمام الفأر ، ويغتاظ العالم فى انتظاره ، والفأر مكانه ، ويراقب الفأر زميل للعالم الذى راح ليستريح . وتمر أربع وعشرون ساعة والفأر لم ينط إلى أسفل . وقد أتعب الفأر العالم بعد عودته فأوقف التجربة . . . . إذ قد أظهر الفأر أنه محتفظ بذاكرة ممتدة مدة طويلة عن تلك الخبرة المؤلمة .

وجاءوه بفأر ، له ذيل وصفوه بأنه أنيق رشيق ، ووضعه على نفس السطح وبشقاوته نط ، ثم وضع على السطح وقفز . . . . وهكذا حتى كهرب العالم أرضية الغرفة . وتكهرب هذا الفأر فى ألم . وهنا تدخل العالم ومرر تياراً كهربياً خفيفا فى مخ الفأر . خفيفاً حتى لا يسبب أضراراً لمخه ، وكل ما قصد به أن ينشط النيرونات بالمخ ، وبذلك يمنع تكوين العملية الثانية وهى الخاصة بانتاج البروتين والنشاط الانزيمى . وكما توقع العالم فإن هذا الفأر الذى تكهرب عند ما سقط على الأرضية ثم دغدغ مخه بتيار كهربى

خفيف ، ووضع فى اليوم التالى على السطح العلوى ، وترك لشقاوته ، نط إلى أسفل وكأنه لا يذكر شيئاً عن سقوطه وكهربته بالأمس .

فأر ثالث — وما أكثر وأرخص الفئران — بعد أن سقط على الأرضية المكهربة ، ترك فترة زمنية أطول مما انقضت فى حالة الفأر الثانى صاحب الذيل الأنيق بين كهربته ومرور التيار الكهربى فى مخه . وبعد انقضاء هذه المدة الزمنية مرر العالم تياراً كهربياً فى مخه ، وأعيد فى اليوم التالى ووضع على السطح العلوى . . . . لكنه لم يقفز إلى تحت ، ربما تذكر ما حدث له بالأمس .

معنى ذلك أن العملية الأولى (فى الذاكرة) كان لها من الوقت ما سمح بتكوين العملية الثانية التى لم يستطع التيار الكهربى الخفيف أن يؤثر فيها .

وفى إحدى التجارب لجيمس ماك جو من جامعة كاليفورنيا استخدم ثمان مجموعات من فئران من أصلين وراثيين مختلفين ، وعرض هذه المجموعات لخبرة تعلمية مرتبطة بالخروج من متاهة بسيطة . وبعد أن تمت عملية (التعلم) هذه أخذ أربع مجموعات من كل أصل وراثى وحقنها بجرعات من مادة الميترازول تفاوتت من حيث كميتها . وقد ظهر أن هناك إختلافاً تبعاً للأصل الوراثى فى كفاية التعلم . ثم ظهر أن هذه الكفاية زادت بدرجة ملحوظة بعد الحقن الميترازولى ، وبالدقة فإن الفئران المحقونة أظهرت تحسناً بنسبة ٤٠ ٪ عن أشقائها (من نفس الأصل الوراثى) والتى لم تتعرض للحقن . بل إن الفئران (الغبية) عندما حقنت بجرعة قدرها عشرة ملليجرامات لكل كيلوجرام من وزنها تفوقت على الفئران (الذكية) التى لم تتعرض للحقن

فى الرأى أن الميترازول إلى جانب تسهيله عملية التعلم فهو يعمل على المساواة بين الفئران ذوات الصفات الوراثية المختلفة . فكلما زادت الجرعة

المعطاة للفأر الغبي من خمسة ملليجرامات إلى عشرة زادت قدرته التحصيلية والأدائية . ولكنه وجد أنه إذا زادت جرعة الغبي عن عشرة ملليجرامات (لكل كيلوجرام من وزنه) حصل تدهور فى تعلمه ، نفس التدهور الذى حصل للفئران الذكية التى زيدت الجرعات التى أعطيت لها عن خمسة ملليجرامات . معنى هذا أن الجرعة المعطاة تختلف من كائن (فأر) لآخر ، أو أن هناك تفاعلاً بين الوراثة والدواء ، وقد يعنى هذا أيضاً أن هناك حداً للقدرة العقلية لا يستطيع الكائن تجاوزها .

وقد أبانت دراسات أخرى أن الأدوية التى تعطى للمفحوصين لا تنتج نتائج واحدة ، أى أنها لا تؤدى إلى إحداث تأثيرات متشابهة . فعند بعض الفئران أدت جرعة الدواء إلى تحسن فى الانتباه ، وعند البعض إلى زيادة المهارة فى معالجة المشكلات ، وعند بعض ثالث إلى ارتفاع كفاية المثابرة ، وعند مجموعة رابعة إلى تفوق فى الذاكرة المباشرة ، وعند آخرين فى الذاكرة طويلة الأمد . أى أن الأدوية المختلفة لها تأثيرات مختلفة تبعاً للفروق الفردية بين (الأفراد) ، وبالنسبة أيضاً لنوعية الأعمال العقلية التى تنتج بعد تعاطى الدواء .

مجموعة من العلماء ، وأيضاً من كاليفورنيا ، ولكنهم لم يتدخلوا فسيولوجياً أو كيميائياً ليعرفوا نتائج هذا التدخل ، كسابقيهم ، لكنهم تعاملوا مع حيوانات سوية ثم درسوا أثر الذاكرة على كيميائية وتشريح المخ ، أى ماذا يحدث فى المخ بعد أن تتكون وتكتمل عملية الذاكرة . والقصة ببساطة أنه إذا كانت عمليات الذاكرة طويلة الأمد تتضمن نشاطاً أكثر فى الأنزيمات المخية ، فإن الحيوانات التى تعرضت لعمليات تعلم وتذكر كثيرة يجب أن تكون مخاخها أنزيمياً مختلفة عن تلك التى لم تتعرض لتلك العمليات والتحديات العقلية . لهذا تم للعلماء الأربعة إحضار ١٢ زوجاً من الفئران التوائم الذكور ، وبالقرعة أخذ واحد من كل توأم وفصل عن

(أخيه) ثم نقل الاثنى عشر فأراً ووضعت فى قفص كبير مزود بالمراجيح وسلالم وعجلات وألعاب فئرانية مختلفة ، والقفص مضاء بالكهرباء التى تغرقه كله ، وتنساب إليه أصوات عديدة بعضها صاخب وبعضها هادئ .... باختصار بيئة كلها حركة ونشاط وحيوية .... بل إنها تتنزه كل يوم لمدة نصف ساعة تزور فيها أماكن مختلفة . وتعرضت تلك الفئران لخبرات تعلمية مختلفة إزدادت فى تعقدها مع نموها وعمرها الزمنى . واستمر هذا البرنامج (التعليمى) لمدة ثمانين يوماً .

أما أشقاء المنتخبين بالقرعة فقد عاشوا نفس الفترة فى حياة انعزالية ، كل فأر فى مكان ضيق صامت صمت القبور مظلم تقريباً ، ويقدم الطعام لكل فأر من خلال فتحة ضيقة لا تسمح إلا ببصيص يسير من الضياء . لكن الأمر الهام أن طعام المحظوظة كان هو نفس طعام التعسة وبنفس الكميات . فرق بين سكن انعزالى وبين حياة جماعية يجد فيها الفأر الذى يتعلم أمرع جزاء لذيذاً يبسطه .

وعندما بلغ الفئران سن الخامسة بعد المائة يوما تقرر إعدامها وتشريح مخاخها . وكررت التجربة على فئران أخرى وأخرى ...... عدة مرات .

وكانت النتيجة أن الفئران سعيدة الحظ تمتعت بقشرة مخية زادت فى اتساع وفى عمق وفى الوزن ، ويعزى هذا إلى زيادة فى عدد من خلايا مخية معينة تلعب دوراً حيوياً فى تغذية النيرونات ، بل ربما هى صاحبة الفضل فى تثبيت الذاكرة لأمد طويل . ويعزى هذا الاتساع فى القشرة المخية أيضاً إلى زيادة حجم أجسام الخلايا النيرونية ، وأيضا إلى زيادة قطر الأوعية الدموية التى تمون القشرة المخية .... بل وجد أن بمخاخ هذه الفئران بروتين معين .

وقيل إنه أمكن تصنيع هذا البروتين . . . . . . الذى تكون نتيجة تواجد الفئران فى بيئة (تربوية) ممتازة إذا قورنت بالسجن الانعزالى . وقيل إن مخاخ فئران أخرى حقنت بمستخلص هذا البروتين ، وانتقل إليها أثر التعلم . . . . وقيل إن المستقبل خطير بالنسبة للبشر فى تعلمهم . . . . وأن القوالب التقليدية المعروفة سوف تتغــير ، وستكون هناك أمصال وحبوب وبرشام (غير هــذا المعهود فى الامتحانات) . . . وأشياء أخرى . . . . . .

والمستقبل آت بمفاجآت ، وآت بأحداث عجيبة غريبة تذهل المفكر . ويستعد القوم فى دول متقدمة إلى إجابة عن سؤال قد يبدو على السطح ساذجاً وفى أعماقه موجاً : هل المدارس بشكلها ومضمونها المعهود هى الصيغة المعقولة المقبولة للمستقبل ؟ وتطالعنا اليوم حركة اللا مدرسية . . . والأمر كله يتطلب الكثير من التريث .

الكتخدا وسقاء حريم و لوسيان

كان والد أحمد سقاء حريم يسكن درب سعادة بالقرب من باب الخلق ، ولكنه كان شديد التطلع إلى مستقبل ابنه ، ربمـا لأن صناعته لم تكن تعجبه وفيها شقاء وتعب وغدو ورواح والكسب محدود ، وإن كان ينال فى المراسم والأعياد بعض المنح ، لكنه كان يقبلها على مضض . وأدخل أحمد كتاباً قريباً من البيت ، وسيدنا فيه رجل طيب استنفذ سنوات طويلة يعلم الصبية ، وكانوا يتندرون عليه أن شهادته لا تقبل فى المحاكم وأن عقله يتأثر بعقول الأطفال الصغار .

وكانت أمور العائلة تسير فى فقر هادئ ، ولكن واحداً من أولاد الحرام تعرف على والد أحمد وزين له أمراً ، ربما ذكره صراحة أمين باشا

سامى فى « تقويم النيل » . إذ كان لمحمد على باشا الكبير مجموعة من المقربين إليه ، وكانوا أهل ثقته وموضع سره . وكان واحد منهم اسن لاظ أوغلى . وعلت منزلته حتى صارت الأسرار الكبرى من نصيبه ، بل عهد إليه فأسس دواوين الحكومة ، وصارت له يد طولى للتصرف فى شئون الإدارة .

ثم عمد إلى ترتيب أعداد من الجواسيس يستضافون فى بيوت الأعيان والأغنياء وبعضهم يجلس فى المقاهى ، والبعض يندس فى الموالد ، وكلهم فى أزياء مختلفة وعلى هيئات متعددة . ثم يتلمسون الأخبار والمعلومات وقد يستدعى الأمر مصادقة عابرة وانفاق قليل من النقود حتى تأنس الفريسة إلى الجاسوس فتنسكب منه المعلومات المطلوبة . وتتجمع المعلومات على قرطاس ورق يوضع فى فتحة بيت بحى السيدة زينب ، تسكنه سيدة تعرف العربية والتركية ، وكان محمد على قد أحضرها لتعلمه بعض اللغة العربية . ولكل رسالة ميعاد . . . ثم تحمل السيدة هذه (التقارير) كل يوم إلى القلعة — والمسافة ليست طويلة — حيث تجد الشيخ يوسف (وعلى اسمه الميدان المعروف فى جاردن سيتى كما سماه الانجليز فيما بعد) وتسلمها له . ويسلمها هذا إلى لاظ أوغلى .

ودخل أبو أحمد اللعبة ، وجرت النقود سريعة وكثيرة فى يديه . وكان يمكن لهذا الحال أن يستمر ، وكان يمكن أن يرث ابنه مهنته خاصة أنه بدأ فعلاً يفك بعض الخط وحفظ فعلاً ربعاً من القرآن الكريم ، ولكنه تقدم أكثر فى العمليات الحسابية . وربما فكر أبو أحمد أن يتزوج بعد أن كفى بيتاً ما يريده من غذاء وكساء ومأوى وصار عنده فيض كان يزداد بكثرة الرسائل التى يدسها فى بيت انسيدة التى علمته القراءة والكتابة فى زمن قيامى ، فقد تحمس ليرتفع درجات . وقد ارتفع . وتقرب من الشيخ يوسف ومن لاظ أوغلى .

وتولى ابراهيم حكم مصر وتضاءلت سلطة محمد على التى حمت لاظ أوغلى، كتخدا مصر أيامه وكذلك الشيخ يوسف وبالتالى رجالهما ومنهم أبو أحمد . بل شاعت أقوال عن احتمال القبض على الذين تعاونوا مع كتخدا مصر المحروسة . وكان هذا فى بداية عهد عباس . فاختبأ أبو أحمد مع عائلته . وعجب أحمد لهذا التغير المفاجئ . وكان أبوه قد تزوج ولكن زوجته الثانية وقد رأت الفقر يقترب منه آثرت أن تبقى مع عائلتها فى أرض الطبالة .

وبدأت الحلقات تضيق حول (أبو أحمد) فحمل ما يستطيع ، وكانت السكة الحديد قد دخلت مصر ، فركبها إلى قريته بالقرب من طنطا ، وكان من أشد المعجبين بالسيد البدوى . وكان أحمد يكبر وحاول أن يدخل كتاباً ، ونجح ، ولكن سيدنا كان فظاً غليظ القلب فوجد فيه غلاما قد كبر بل صار منافساً له . وطرده .

وطال الوقت وأحمد لا يجد مكانا يتعلم فيه فقد أقفل عباس معظم المدارس ، كما أن الوالى سعيد باشا التحف بحكمته القائلة أن الشعب الجاهل أسلس قيادة من الشعب المتعلم . وضاقت الدنيا فى وجه أحمد واشتد ظلامها ، وكان عليه أن يمسك الفأس ويضرب فى الأرض بجوار والده . . . . فالأسرة يجب أن تأكل .

وصارت تنتابه حالات من الفزع والصراخ ، ولم تفلح زياراته لضريح السيد البدوى ولا النذور التى كان ينفذها والده ، ولا الأحجبة ولا الرقيات الصادرة من بعض الدراويش ، وكثر البخور فى البيت الصغير لكن النوبات لم تنقطع . حتى جاءهم من أفتى بضرورة أن يتزوج أحمد .

وجاءوه بعروسة صغيرة لا تعرف بعد من أمور الدنيا أكثر من أنها فقدت أباها وأمها فى حادثة وهما يركبان عربة يجرها حمار ومحملة ببشر غيرهما . . . . وأطاح بهما هذا الوارد الحديدى الجديد من بلاد الغرب ،

وتناثرت الأشلاء . وتزوج أحمد فى حجرة صغيرة مجاورة ليس بها إلا النذر اليسير من الأثاث ..... وربما كان يكفى ، فالعروسة الصغيرة وجدت متعة كبيرة مع هذا الغريب ووجد هو معها أذناً تسمع شكواه ، وتظل تسمع وهى صامتة أو مؤمنة على قوله . ولم يجد هذه المتعة مع أحد سابقاً . وظل يحكى ويقص دون أن ينسى واجباته الأخرى . وكافأته عروسته الصغيرة بمزيد من الإنصات ، وكانت أحيانا تأخذه إلى صدرها عند ما يبكى غضباً لاعناً هؤلاء الذين حرموه التعليم .

وذات فجر جاء زائرون يطرقون باب هذه الحجرة الصغيرة . ووقف أحمد أمامهم وما زال النكرى فى عينيه بينما غطت عروسه وجهها استحياء وكل جسمها يرتجف . وكان كلام حول زيارته للمركز طلباً لفرصة للتعلم ، ثم عن سنه وعمله وأبيه وأسرته . . . وذهب مقتاداً معهم .....

وتمر شهور طويلة قبل أن يعلم أحمد شيئاً عن والديه واخته وزوجته . فوسط زوبعة رملية تقابل مع حسن الذى وصل حديثا إلى هذا الموقع من حفر قناة السويس . ولم يعرف حسن أحمد بادئ الأمر فقد ازدادت بشرته سماراً وازداد جسمه نحولاً .

وهدأت ذرات الرمال وخرج الجميع من المواقع التى احتموا بها من العاصفة ، وعادوا إلى العمل فإن سياط الملاحظين والمراقبين من جنسيات عديدة كانت أسرع فى معاملتها من مجرد التلكؤ فى حركة من عامل . وجاء وقت يأكلون فيه وترقد السياط على الأرض وتعود الآدمية إلى العمال أو قل آلات الحفر البشرية .

- مبروك يا أحمد فقد رزقت ولداً اسموه ، أحمد أيضا ، زوجتك شوق ووالدك ووالدتك بخير ، وقد خطبت اختك ..... برقية شفوية فيها كل الأخبار . ومئات الألوف من العمال اقتيدوا إلى هذا المكان فى

الصحراء يريدون أن يعرفوا شيئا من الأخبار عن أهلهم . وملايين من المصريين يريدون أن يعرفوا أخباراً عن أبنائهم هناك فى مواقع حفر قناة السويس .

وجه نحاسى وشعر أصفر وقوام ممشوق وورق ملفوف بين يديه ، ثم عربة يجرها حصان رشيق . وقفت . واتجه إليها ، وقبل أن يجلس فيها أصدر أوامره لبعض الخلق وبلغة أجنبية .

وبدأ الغول القابع فى صدر أحمد يستيقظ . وبدأ جام الغضب يفور ويغلى ، فألقى بالمعول الذى فى يده واندفع إلى العربة وأمسك لجام الحصان وهو يصيح موجها كلامه إلى الرجل نحاسى الوجه :

انت لست خيراً منى حتى تنال تعليماً وتكون انت ما انت فيه . . . . خذنى أو ارسلنى وعلمنى وسوف أكون مثلك نعم مثلك : . . بل ربما خيراً . . . فهذه أرضى عند ما أعمل فيها سأكون أكثر حماساً . . . . العلم . . . وسوف أعطى بلدى الذهب ! ! والتف خلق حول أحمد وحلوه . سأل الرجل عما قاله أحمد . . . فطلب مقابلته . عرف أحمد أن مسيو لوسيان المهندس الفرنسى فى الموقع يريد مقابلته . وكان طبيعياً أن يغسل وجهه وينظف ملابسه أو يغيرها وأن تتخلص يداه وقدماه مما فيها فى محاولة أن يظهر لون الجلد كما أراده الله تعالى .

أوصى المهندس الفرنسى لوسيان بأن ينال أحمد قسطاً من التعليم يشرف عليه مركز الشركة بالقاهرة ، وأن يجيد الفرنسية ويتعلم شيئاً من العلم يساعده أن يكون أحد صغار المساعدين له . . . . . . صرت أعد النجوم وأنا قريب منها ، فلم أنم وصعدت إليها على أحبال الرجاء والآمال والفرح . . . وكنت مع السماكين علواً . . . . وغداً القاهرة المحروسة . . . . ثم إلى باريز .

لكن لابد من مقابلة الشيخ رفاعه الطهطاوى وقد عاد من السودان ، ولابد من قراءة كتابه « تخليص الأبريز إلى تلخيص باريز » . . . هل آخذ زوجتى معى حتى لاأفتن بالمرأة الفرنسية التى أبدع وصفها الشيخ رفاعه . . . مؤكداً أن وجودها فى المجتمع يكسبه جمالا وتضفى عليه بهجة وأنساً وحياة . . . ولكننى سأبعد عن عقائد الفرنجة القبيحة الشنيعة .

ثم ربما فشلى فى دخول الأزهر يعوض الآن، وقد بكيت أيامها وعوضنى الله على يد هذا الفرنسى . . . أنا لم أره فى حياتى ، ولم أكن أبداً كما كنت أمس . . . ولكنه القدر . . . وهذا مكتوب . . . أن يضطر والدى إلى التعرف على الكتخذا ثم إلى الهرب إلى هذه القرية ثم إقتياد إلى حفر القناة . . ثم . . . ثم لابد لى من زيارة على مبارك ولعله عاد من الحرب . لقد حدثنى زميل لى فى الحفر هو من عرب السماعنة ، حدثنى عنه وكيف هاجر إليهم من برنبال — دقهلية . وكيف حكى لهم عن أبى عسر فقيه الكتاب وجعله يكره التعليم ، لكنه كان مصمماً عليه ؛ حتى إذا حلت ضائقة مالية بأسرته هاجر إليهم ، ثم كيف جلس إلى أبى الخضر فى كتاب قرية قريبة ولم تجد رشاوية لسيدنا قاسى القلب . ثم كره الكتاب كرهاً شديداً . . . ثم . . . وثم درس فى فرنسا وتعلم كثيراً عن آراء المفكرين .

وتمضى رحلة أحلام الآمال وأنا مستمتع كل الاستمتاع بها وهى خير ألف مرة من النوم . . . كنت أنام كل ليلة منذ جئت هذا المكان - أو الأصح منذ أحضرونى إليه — وأنا لاأعرف رأسى من قدمى فكان التعب يأخذنى أخذ عزيز مقتدر فاستسلم للكرى حتى فجر يوم جديد .

وطلعت الشمس وكان الخبر قد ذاع ، وغنى الرجال وزغردت النسوة الموجودات هناك ، وأنا أقرأ ماحفظت من آيات الله البينات . وعلا الفرح

المكان حتى ظهرت السياط واكتسحت الجمع الغفير . ثم جاء لوسيان وأشار وتبعته إلى خيمته . وتولى المترجم عمله وعرفت أننى سأذهب الظهر إلى القاهرة . وعلى باب الخيمة وقف ضابط تركى . وسمح للخلق بتحيتى فى فترة الغداء . . . وذهبت .

ربى ياخالق . . . لك الشكر . . . قريباً أصعد إلى المركب من الإسكندرية وأعيش فى البحر أياماً وليالى ، لاأهاب الموج وأشوق إلى مارسيليا وباريز . كما عاش علماء بلدى هناك سأعيش أما العلم فسوف ألتهمه التهاماً . . . وسوف أنجح . . . أرى وجوه أساتذتى تطفر إعجاباً بهذا المصرى القادم من ريف مصر . . . نعم لستم أكثر ذكاء منا ، ولكن أطفالنا يصبحون طالبين الفرصة . . . وسوف أعود وأتولى مناصب هامة . . . سوف يفخر والدى وأهلى بى ، وزوجتى وابنى أحمد ، ولابد له من تعليم راق فهو ابن عالم . . .

وعند بلبيس توقفنا ، وأخذنى بعض الجنود يرأسهم ضابط تركى : لم يكن يبتسم ، ولكنه كان ينظر إلى شذراً ، ثم دفعنى ، وشممت نذائر سحب قاتمة لاتبشر بخير ، وحاولت التوقف لاستجلاء الأمر ، ولكن الدفعة كانت قوية تلتها ركلة من قدم غليظة ، ووجدت نفسى فى حجرة كبيرة وقد إنكفأت على الأرض غير الحانية . وسمعت أصواتا بلغة تركية تبينت منها . . . فلاح . . . ونزلت على جسمى السياط كالسيل . . . ثم لم أدر ماذا حدث .

أرى سفينة كبيرة فى ميناء الأسكندرية تطير فى الجو وأنا وراءها أحاول اللحاق بها ، وأصوات الركاب تضحك ساخرة منى . أرى معالم باريز وشوارعها تهتز ضاحكة من غفلتى وسذاجتى ، والدى يبكى وأمى تلطم خديها وزوجتى ذاهلة . . . وأحس آلاماً مبرحة تفتك بجسمى من كل جانب وفى كل مكان وكأنما اقترفت خيانات وذنوب الدنيا ، وصار جلدى

ولحمى وعظامى نهباً لأشنع إنتقام : أحس دماً ينزف من أنفى وينساب من فمى والدنيا تتحول إلى ظلام . . .

وفجأة زالت كل الآلام ، وكنت هناك فوق . رأيت جسمى على الأرض مسجى وزبانية جهنم حولى والدماء تحيطنى والسياط تسورنى ، وأجسام غليظة تحيط بى . . . رأيتنى جثة هامدة وسط القتلة ووجوههم راضية قانعة بمافعلوه وأنا هناك فوق حيث لا آلام ، وحيث إرتياح ولا إنتقام . . . أرى أباً يصلى وأماً تترحم وزوجة تتلهم الصبر والسلوان .

* * *

وقد أحس القوم فى موقع القناة شيئاً مريباً ، فقد مضت أشهر ولم يسمعوا عن أحمد ، وكان بالنسبة لهم شعاعاً سوف يضىء ؛ وتمنوه مهندساً أومساعد مهندس مساوياً للفرنجة ، ويفخرون به ، وربما يشكون بعض متاعبهم إليه. ويمتد صبر المصرى وقتاً طويلاً آملا فى خير . ولـكن الأيام تولى ولاأخبار عن أحمد . وينتشر وباء ، وتتحطم الأواعى الفخارية ، وتسوء المعاملة ويبدأ بركان الغيظ يغلى .

وتخرج جماعات صغيرة طفح بها الغضب لتسأل عن أحمد ومصيره . وتخرج عبارات غامضة ولـكنها تطمئن . ولـكن القوم لايعرفون الطمأنينة وتزداد الأعداد معبرة عن احتجاجها فى سؤالها عن أحمد ، وقد صار رمزاً . ثم ذات صباح توقفت الدنيا فى نظر المهندسين الفرنسيين فقد وضعت الفؤوس على الرمال ووقف الرجال رافضين العمل حتى يجاب عن السؤال . وامتلأ الجو على خط القناة بهذا الخبر الوارد بقتل أحمد ، فانسحبت كل الفؤوس عن الحفر ، ووقف الرجال الذين خضعوا للون البرونزى الذى فرضته الشمس ، وقفوا فى نشوة أشبعت بطون نفوسهم المشتاقة إلى كسرة من خبز الحرية والآدمية .

وصار اسم أحمد رمزاً ، وأخطر مايخشاه الظالم ظهور رمز تقتنع به الجماهير .

وقد حدث هذا فجأة ، والفجائية كانت لها رواسب كثيرة وعديدة وكانت الجماهير تنتظرها فى أشد حالات اللهفة . إذن توقف العمل والرجال واقفون والشمس توارت خلف سحب داكنة .

تدلت خيوط (المكرونة) على صدر الخديوى فى قصره الكبير عندما سمع هذا الخبر . هذا نهار أسود لأنه أفقد عليه لذة أكلته المفضلة . ووقف وكرشه يسبقه ملقياً عشرات الأسئلة وهو مازال يتطلع إلى طبق (المكرونة) الذى أرغمته حالته النفسية على هجره ، ولو قليلا .

* * *

ربما أحس الشاب أحمد عرابى معانى أخرى ، وعمل عقله فى تفكير سريع وعميق أثرته أخبار عن هذا (الأحمد) الذى أوقف العمل فى القناة ، وهو غير موجود ، وجاءت عرابى أخبار أخرى هزت وجدانه ومشاعره ، وأحس طعنات من خناجر تهدد بقتل المصرية القابعة فى أعماق نفسه .

كان أحمد عرابى ضابطاً صغيراً سرعان ماكثرت النجوم على كتفيه . . . ويكثر اعتزازه وتقديره بهذا المجهول واسمه أحمد .

عندما وصل أحمد عرابى إلى ميدان عابدين راكباً حصانه ، كان أحمد فى وجدانه . . . وتكلم عرابى فى عظمة المصرى .